

إلى الإسلام من جديد

للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار ابن كثير

إلى الإسلام من جديد

○ الموضوع: ثقافة إسلامية
العنوان: إلى الإسلام من جديد
تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
ISBN 978-614-415-074-0

© حقوق الطبع محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من ورثة المؤلف.



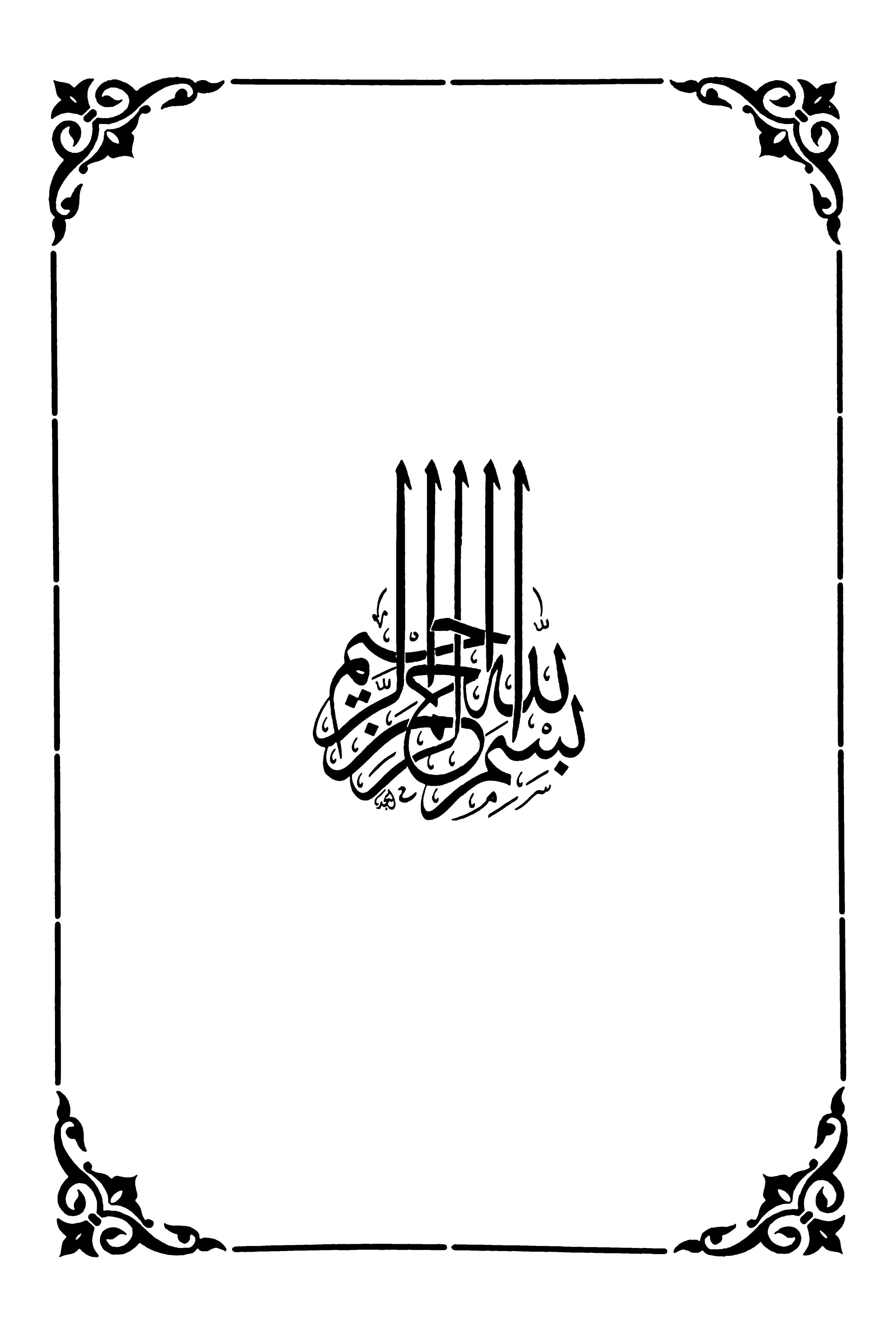
○ الطباعة والتجليد: ملكي برنت
○ الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
○ القياس: ١٤×٢٠ / عدد الصفحات: ٢١٦ / الوزن: ٤٠٠ غ

دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سوريا - ص.ب : ٣١١
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠
الإدارة تلفاكس: ٢٢٤٣٥٠٢ - ٢٢٥٨٥٤١
بيروت - لبنان - ص.ب : ١١٣/٦٣١٨
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس : ٨١٧٨٥٧ ٠١ - جوال : ٢٠٤٤٥٩ ٠٣
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

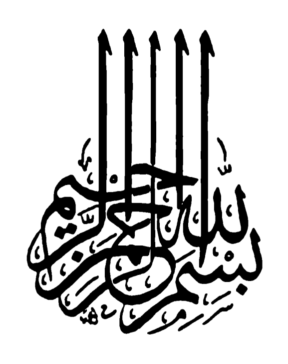
إِلى الإِسلامِ مِن جَديدٍ

لِلعَلَّامَة الإِمَام السَّيِّد أَبي الحَسَن عَلي الحَسني النَّدويّ





بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة الطَّبعة الأولىٰ

الحمد لله ربِّ العالمين ، وصلىٰ ٱلله تعالىٰ علىٰ خير خلقه محمدٍ وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهٰذه المحاضرات التي يجدها القارئ في هٰذه المجموعة كتبت ، وألقيت في مناسباتٍ مختلفةٍ ، تختلف في الزَّمان ، والمكان ، والعنوان ، والألوان ، وتجتمع في غايةٍ واحدةٍ ، وهي : إيقاظ الشعور الدِّيني في المسلمين ، وإعادة الثقة إلىٰ نفوسهم بمركزهم ، ومبدئهم ، وغايتهم في الحياة ، ورسالتهم للعالم البشريِّ ، وتهيئة النفوس لحمل هٰذه الرِّسالة ، وتبوُّء مركز القيادة ، والإمامة للعالم الحائر الثائر ، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاَّحين العابثين ، والرُّكاب النائمين .

وقد خُوطبتْ في هٰذه المحاضرات ، والمقالات الأمَّةُ

الإسلاميَّةُ بصفةٍ عامَّةٍ ؛ إذ هي الأمة الأخيرة التي أُخرجت للناس ، وصاحبة الرسالة الأخيرة التي وُجِّهت إلىٰ الناس ، وعنيت بها الأمة العربية بصفة خاصَّةٍ ، فمن أفقها طلعت شمس الإسلام في العصر الأوَّل ، وأسفر الصُّبح الصادق ، وقد أسكنها ٱلله في خير مركز في العالم لتوجيه الدَّعوة الإسلامية ، وإزجاء الرسالة الإسلامية إلىٰ الأمم المتحضِّرة ، والعالم المتمدِّن ، وتبوُّء مكان القيادة العالميَّة .

ولما كانت هـٰذه المحاضرات كُتبت في ظروفٍ مختلفةٍ ؛ كنت أشك في وجود وحدة تربط بينها ، لذٰلك لمَّا اقتُرح عليَّ نشر هـٰذه الرسائل في مجموعةٍ ؛ ترددت بعض الزمن في إجابة هـٰذا الطلب ، ونظرت فيها من جديدٍ ، فإذا بوحدةٍ تجمع بينها ، وغايةٍ تشترك فيها ، وهي : الدَّعوة إلىٰ الإسلام من جديد ، فقبلت هـٰذا الاقتراح ، وجمعتها في مجموعة أَسميتها : « إلىٰ الإسلام من جديد » وأدعو ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أن ينفع بها القرَّاء ، وأن يُحرِّك بها سواكن القلوب ، ويُحيي بها موات النفوس ، إنَّه علىٰ كل شيء قدير !

أبو الحسن علي الحسني النَّدوي

نزيل القاهرة

١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م

مقدِّمة الطَّبعة الثانية

الحمد لله ، والصلاة ، والسَّلام علىٰ رسول ٱلله ، أما بعد :

فقد ظهرت الطبعة الأولىٰ لكتاب : « إلىٰ الإسلام من جديد » في القاهرة سنة ١٣٧٠ هـ ، وكانت طبعةً مشوَّهةً ممسوخةً ، كثُر فيها التصحيف ، والتحريف ؛ حتىٰ كان المؤلف نفسه يحار في فهم كثيرٍ من الكلمات ، وردِّها إلىٰ أصلها ، ويظهر : أنَّ الناشر لم يعتن بتصحيح الكتاب ، وإتقان الطباعة ، وحسن المظهر اعتناءً ما ، وبالرغم من ذٰلك كان للكتاب انتشارٌ وذيوعٌ في الأوساط الإسلاميَّة ، ونفد الطبع في وقتٍ قريب .

واتَّفق بعد ذٰلك أن جمعت مقالاتي في مجاميع مختلفةٍ ، أخذت بعضها من : « إلىٰ الإسلام من جديد » ومن هٰذه المجاميع : « العرب والإسلام » و : « الطريق إلىٰ المدينة » وكتبت بعض مقالاتٍ أخرىٰ ، وألقيت بعض محاضراتٍ تدخل في موضوع : « إلىٰ الإسلام من جديد » وتستحقُّ أن تُضمَّ

إليها ، يفقدها القارئ في الطبعة الأولىٰ ، ويجدها في هـٰذه الطبعة ، وبذٰلك تكوَّنت مجموعةٌ أكثرها قديمٌ ، وقليلٌ منها جديدٌ ، يجمعها اسمٌ واحدٌ ، وغرضٌ واحدٌ ، وهو : « إلىٰ الإسلام من جديد » ورغب بعض الأصدقاء في طبعها ، ونشرها ، فأذنت لهم بذٰلك شاكراً فضلهم ، وعنايتهم بنشر الفكر الإسلامي ، والدَّعوة الإسلامية ، منتهزاً هـٰذه الفرصة لصدور هـٰذا الكتاب من جديدٍ ، وعلىٰ ٱلله قصد السبيل .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دائرة الشيخ علم ٱلله الحسني رحمه الله

١ / ١ / ١٣٨٧ هـ

١٠ / ٤ / ١٩٦٧ م

إلىٰ ممثِّلي البلاد الإسلاميَّة

عرجت علىٰ المؤتمر الثقافي [١] العام ، الذي قد اشترك فيه ممثلو البلاد ، وبعثات الأمم ، ووفود النوادي ، فرأيت معرضاً للجنسيات ، والوطنيات ، والحضارات ، ورأيتكم أيُّها السادة المسلمون شامةً بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم في الشارة ، واللباس ، بل لأنكم تمثِّلون تلك الأمَّة العظيمة التي كانت ، ولا تزال شامةً بين الأمم .

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرناً سائراً سيره الطبيعي ، لا ينكر من أمره شيء ، فكانت القرىٰ ، والمدن عامرةً بالسكَّان ، وكانت العواصم الكبرىٰ زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحِرَف البشرية ، ووجوه المعاش في ازدهار ، وانتشار ، كانت الزراعة ، وكانت التجارة ، وكانت

---

(١) المؤتمر الثقافي الآسيوي الذي عقد في دهلي في أبريل ١٩٤٧م ، واشترك فيه ممثلو : مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وإيران ، وتركيا ، وأندونيسيا من الأقطار الإسلاميَّة .

الصناعة ، فبينما كانت سكة الفلاح في شغلٍ ، ونشاطٍ ؛ كانت القوافل التجارية غاديةً رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونةً بالمتاجر ، والبضائع ، وكان الصنَّاعون مكبِّين علىٰ أعمالهم ، وكانت الحكومات ، والإمارات ، والدُّول غنيةً بأموالها ، ورجالها ، لكلِّ وظيفة رجلٌ كُفُؤٌ ، بل رجالٌ أكفاء ، وكان علىٰ وجه الأرض كلُّ نوعٍ من البشر ، وكلُّ لونٍ من الحياة ، وكلُّ مظهرٍ من مظاهر المدَنيَّة ، لا يُرىٰ في الحياة الإنسانية المادية عوزٌ ، أو فراغ ، ولم تكن في المدينة وظيفةٌ شاغرةٌ يترشح لها مترشِّحٌ جديدٌ ، وكانت كأسُ الحياة مترعةً لا تطلب المزيد .

في هـٰذه الحال ظهرت أمَّةٌ في جزيرة العرب ، ووجد نوعٌ جديد من البشر ، وكأني بالأمم المعاصرة ؛ وهي تتسائل : أيُّ داعٍ إلىٰ ظهور أمَّةٍ جديدةٍ ؛ والأمم علىٰ وجه الأرض كثيرةٌ منتَشرةٌ ، وما شغل هـٰذه الأمة الحديثة ، وما مهمَّتها في العالم ؟

وكأنِّي بها تقول : إذا كانت هـٰذه الأمَّة إنَّما بعثت للزراعة ، وعمارة الأرض فقد كان في فلاحي الطائف ، وأكَّاري مدينة يثرب ، وزرَّاع وادي الفرات ، والنيل ، وربوع الكنج ، وجمنا غنىً عن أمَّةٍ زراعيَّةٍ جديدة ، فقد أصبحت أراضي هـٰؤلاء الفلاحين ، وبلادهم جنةً تدرُّ لبناً ، وعسلاً ،

وإذا كان المسلمون إنَّما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يُبعثوا في العراق ، وفي مصر ، والهند ، وهي بلاد مخصبة زراعية ، ولماذا كان مبعثهم في واد غير ذي زرع ؟!

وإذا كانت هٰذه الأمة إنَّما بُعثت للتجارة ؛ فقد كان في يهود يثرب ، وفي أنباط الشام ، وفي أقباط مصر ، وتجَّار السند كفايةٌ ، فقد أحكموا فنَّ التجارة وانتشروا في العالم ، وإذا كانوا قد بُعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقّاً ؛ فلماذا لم يبعثوا علىٰ طريق القوافل التجارية ، وبقربٍ من أسواق التجارة الكبرىٰ ؟

وإذا كانت هٰذه الأمَّة إنَّما بعثت للصناعة ، وأعمال اليد ، فقد كان في قيون البلاد المتمدنة ، وأصحاب الصنائع والحرف ـ وإنهم لكثير ـ غنىً ، وكفايةً !

وإذا كانت هٰذه الأمَّة إنما بعثت لتنضمَّ إلىٰ الحكومات الروميَّة ، والإيرانية ، ويشغل أفرادها وظائف هٰذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام ، وفارس غنىً ، وكفاية في الإدارة ، وإنَّهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ، ويدفعونهم بالراح .

وإذا كانت هٰذه الأمة بعثت لعيش هنيءٍ ، ومطعم شهيٍّ ، ومشرب مريءٍ ، وملبسٍ وضيءٍ ، ومسكن بهيٍّ ،

لا لشيء آخر ، وإنما مناها ، وهمُّها أن تلقىٰ لبوساً ، ومطعماً ؛ لم تكن بدعاً من الأمم ، وكانت منافسةً لنا في ميدان الحياة ، فحقَّ لنا أن نقاتلها ، ونذودها عن مناهلنا ؛ وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمةً جديدة ؟!

وإذا كانت هـٰذه الأمَّة إنَّما تحاول ملكاً ، أو تريد أن تؤسِّس دولةً ، فيجب أن تصرح بذٰلك ، وتتخذ له طريق الملوك ، والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدِّين .

وإن الطريق إلىٰ كلِّ ذٰلك ـ من زراعةٍ ، وتجارةٍ ، وصناعةٍ ، ووظيفةٍ ، وحياة بذخٍ ، وترفٍ ، وملكٍ ، وشرفٍ ـ غير الطريق التي سلكتها هـٰذه الأمة الجديدة ، فقد سفَّهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت عقائدنا ، وأخلاقنا ، وأعمالنا ، ودعت إلىٰ دينٍ جديد ، وسارت في سبيل ذٰلك في شوكٍ ، وقتادٍ ، وجاهدت في غير جهادٍ .

لقد كان الطريق إلىٰ الرفاهية ، أو الحكومة مسلوكةً معبَّدةً ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشىٰ عليها الملوك ، وأصحاب الطموح في عصرهم ، فمن حال بينها وبين هـٰذا الطريق ؟ ! وما الذي عدل بها عن جادة الحياة ، وهي معلومة واضحة ؟ !

هـٰذا ما أظنُّه تناجىٰ به ضمير الإنسان العاقل في فجر

الإسلام ، ولا ألومه ، ولا أستغرب هـٰذا السؤال ، فإنَّ هـٰذا السؤال طبعيٌّ ، ينبغي أن يهجس في قلب الإنسان ، وينطق به اللِّسان عند كلِّ ناشئةٍ ، فلماذا لا ينشأ هـٰذا السؤال عند ظهور أمَّةٍ بأسرها ؟

ما هو الجواب ؟ إذا كان الجواب في الإثبات ، وإذا كان مبعث هـٰذه الأمَّة في الحقيقة بشيءٍ ممَّا ذكرناه ، ولم تكن لهـٰذه الأمة مهمَّةٌ جديدةٌ في العالم ، ورسالةٌ خاصة إلىٰ الأمم ؛ كانت هـٰذه الأمة حقاً من فضول الأمم ، ومن المتطفِّلين علىٰ مائدة العالم .

ولـٰكن ٱلله لم يبعثها لهـٰذا ، أو لذٰلكَ ، والأمة والأشخاص لا يبعثون لشيءٍ من هـٰذا ، وإنّما هي من طبائع البشر ، لا تحتاج إلىٰ نبوَّة نبيٍّ ، ولا بعثة أمَّةٍ ، وجهادٍ طويلٍ ، وزلزالٍ عالميٍّ لم يسبق في التاريخ ، زلزال في المعتقد ، والأخلاق ، والميول ، والنزعات ، وفي نظام الفكر ، ومنهاج الحياة .

لقد كان مبعثها لغرضٍ سامٍ جداً ، لمهمَّةٍ غريبةٍ طال عهد الإنسانية بها ، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها ؛ حتىٰ نسيتها ، وذٰلك ما خاطب به ٱلله سبحانه وتعالىٰ هـٰذه الأمَّة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، فنبَّه علىٰ أنَّ هـٰذه الأمَّة ليست نابتةً نَبَتَتْ في الأرض كأشجارٍ بريَّةٍ ، أو حشائش شيطانيَّةٍ ، بل

إنَّها أمَّةٌ أخرجت ، ولأمرٍ ما أخرجت ؟ وإنَّها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم ، بل إنَّها أخرجت للناس ، وذٰلك ما تمتاز به الأمة في التاريخ ، فما من أمة إلا وهي وليد أغراضها ، ورهين بطنها ، وشهواتها ، تعيش لأجلها ، وتموت في سبيلها ، أمَّا الأمَّة الإسلاميَّة ؛ فهي أمَّةٌ أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهىٰ عن المنكر ، وتؤمن بٱلله ، وتجاهد في سبيل ٱلله .

ظهرت نواة هـٰذه الأمَّة في مكَّة ـ قلب جزيرة العرب ـ فقام العقلاء من قريش ـ وهم الآخذون بزمام الحياة في البلاد ـ ونثروا كنانة فكرهم ، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التي عرفوها ، وألفوها ، ووزنوها في ميزان الإنسانيَّة الذي طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشي الكفَّة ، وذهبوا إلىٰ إمام الدَّعوة الإسلاميَّة ، وأول المسلمين في العالم ﷺ فقال قائلهم :

« إنَّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم ، فرَّقت به جماعتهم ، وسفَّهت به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم ، ودينهم ، وكفَّرت به من مضىٰ من آبائهم ، فاسمع منِّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منها بعضها » .

فقال له رسول ٱلله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يابن أخي ، إن كنت إنَّما تريد بما جئت به من هـٰذا الأمر مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا ؛ حتىٰ تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد شرفاً ؛ سوَّدناك علينا حتىٰ لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت إنما تريد ملكاً ؛ ملَّكناك علينا »[1] .

سمع رسول ٱلله ﷺ كلَّ ذٰلك في هدوءٍ ، وتأنٍّ ، ثم رفضه في غير شكٍّ ، أو تأخير ، ولم يكن هـٰذا العرض من قريش علىٰ شخص الرَّسول ﷺ فحسب ، بل كان علىٰ هـٰذه الأمَّة التي يمثلها ، ويقودها ، ولم يكن رفض رسول ٱلله ﷺ لما عرضت قريش رفضاً عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضاً عن أمَّته إلىٰ آخر الأبد .

اقتنعت قريش بهـٰذه المحاورة ، ويئست من مساومة هـٰذه الأمَّة ، ولم تعد تعرض علىٰ رسول ٱلله ﷺ مباشرةً ، وعلىٰ هـٰذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل ، وقطعت منها أملها ، وكان بعد ذٰلك صراعٌ مستمرٌّ ، ولم يكن نزاعاً في أغراض المادة ، وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد الرزق ، والتغلُّب علىٰ الأسواق ، بل كان نزاعاً بين الإسلام ، والجاهلية بمعنىٰ الكلمتين ، نزاعاً بين حياة العبودية ، والانقياد لله تعالىٰ ، ورسوله ، وبين الحياة الحرَّة المطلقة التي لا تعرف قيداً ، أو

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

لا تخشىٰ معاداً ، ولا حساباً .

وكان من نتيجة ذٰلك معركةُ بدرٍ الحاسمة ، وقد قاد النبيُّ ﷺ إلىٰ ساحة القتال جيشاً لا يزيد عدد المقاتلين فيه علىٰ ثلاثمئةٍ وثلاثة عشر رجلاً ، والجيش المنافس فيه ألفُ محارب ، وكان النبيُّ ﷺ يعلم يقيناً أن لو وكل المسلمون إلىٰ أنفسهم ، وقوَّتهم المادِّية ، فالنتيجة معلومةٌ واضحةٌ ، نتيجة كلِّ قليلٍ ضعيفٍ أمام قويٍّ كثير العدد .

فزع الرسول إلىٰ ٱلله تعالىٰ في إنابة نبيٍّ ، وإلحاح عبدٍ ، ودعاء مضطرٍّ ، وشفع لهٰذه العصابة في كلماتٍ صريحةٍ واضحةٍ ، نيِّرةٍ خالدةٍ ، هي خير تعريف لهٰذه الأمَّة ، وبيانٍ لمهمتها ، وغرضها الذي خُلقت له .

لم يقل رسول ٱلله ﷺ : لو هلكت هٰذه العصابة ، وكانت فريسةً للعدوِّ ، أقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقُها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطَّل شغلٌ من أشغال الحياة ، أو وقفت إدارة الحكومات ، لم يقل رسول ٱلله ﷺ شيئاً من ذٰلك ؛ لأنَّ شيئاً منها لم يتوقف علىٰ المسلمين ، ولم يقم بهم ، بل كان قبل وجود المسلمين ، ولا يزال في غنىً عنهم ، ولٰكن الرسول ﷺ ذكر شيئاً بُعث المسلمون لأجله ، وقام بالمسلمين وحدَهم ، فقال : « اللّهم إن تهلك هٰذه العصابة ؛ لن تعبد » .

أجاب ٱلله دعاء الرسول ﷺ وقضىٰ بانتصار المسلمين علىٰ عدوِّهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ، ورواجها ، وازدهارها في العالم ، وانقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ، ولم يبق علىٰ ٱلله لهم حقٌّ وذمَّةٌ ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة ، وسنن الكون ، بل كانوا أشدَّ جريمة ، وأقلَّ قيمةً من الأمم الأخرىٰ ؛ إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وقد حافظ المسلمون علىٰ هٰذا الشرط ، وبرُّوا بهٰذا العهد ، وتذكَّروا : أنهم إنَّما نُصروا علىٰ عدوِّهم ـ قد كان يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر ـ وتُركوا علىٰ ظهر الأرض ؛ لأنَّ عبادة ٱلله منوطةٌ بهم علىٰ أرض ٱلله .

بهٰذه الرسالة انبثُّوا في العالم ، وحملوها إلىٰ الملوك ، والسُّوقة ، والأمم ، وفي سبيل ذٰلك هاجروا ، وجاهدوا ، ولأجل ذٰلك حاربوا ، وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون : أنهم مبعوثون من ٱلله إلىٰ الأمم ، وحاملو راية الإسلام في العالم .

أرسل سعدٌ قبل القادسية ربعي بن عامر إلىٰ رستم ـ قائد

الجيوش الفارسية ، وأميرهم ـ فدخل عليه ؛ وقد زينوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة ، والزرابي ، وأظهروا اليواقيت واللآلي الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجُه وغير ذٰلك من الأمتعة الثَّمينة ، وقد جلس علىٰ سريرٍ من ذهب ، ودخل ربعي بثيابٍ صفيقةٍ ، وسيفٍ ، وترسٍ ، وفرسٍ قصيرة ، ولم يزل راكبها ؛ حتىٰ داس بها علىٰ طرف البساط ، ثم نزل ، وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل ؛ وعليه سلاحه ، ودرعه ، وبيضتُه علىٰ رأسه ، فقالوا له :

« ضع سلاحك ! » فقال : « إنِّي لم آتكم ، وإنَّما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هٰكذا ، وإلا ؛ رجعت ! » فقال رستم : « ائذنوا له ! » فأقبل يتوكأ علىٰ رمحه فوق النمارق ، فخرق دعامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » فقال : « ٱللهُ ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوهم ، فمَنْ قبل ذٰلك ؛ قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبىٰ ؛ قاتلناه أبداً ، حتىٰ نفضي إلىٰ موعود ٱلله » . قالوا : « وما موعود ٱلله ؟ ! » قال : « الجنَّة لمن مات علىٰ قتال مَنْ أبىٰ ، والظَّفر لمن بقي » [1] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

أباح ٱلله للمسلمين الطَّيبات ، وفسح لهم في طرق الكسب ووجوه المعاش ، ولم يضيِّق عليهم في ذٰلك ، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ولٰكن ٱلله لم يبعثهم لذٰلك أمَّةً ، ولم يرضه لهم غايةً ، ومهمَّةً ، بل خلقهم للسعي للآخرة ، وخلق أسباب الحياة لهم ، « إنَّ الدُّنيا خُلقت لكم ، وإنَّكم خلقتم للآخرة » وجعل الحياة ، وأسبابها خاضعةً لمهمَّتهم التي بُعثوا لأجلها ، فإذا زاحمتهم في سبيل مهمَّتِهم ، أو غلبتهم عليها ؛ رفضوها ، وإذا تلكأ المسلمون في ذٰلك ؛ عاتبهم ٱلله عتاباً شديداً ، وقال :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

أراد الأنصارُ ـ رضي ٱلله عنهم ـ أن يتفرغوا لإصلاح أموالهم لأيامٍ اكتفاءً بأنصار الإسلام ، فعاتبهم ٱلله علىٰ ذٰلك

وأنزل : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

قال سيدنا أبو أيوب الأنصاري ـ رضي ٱلله عنه ـ : « إنَّما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنَّا لمَّا أعز ٱلله دينه ، وكثر ناصروه ؛ قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا علىٰ أموالنا ، فأصلحناها ، فأنزل ٱللهُ هٰذه الآية » (١) .

ولٰكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية ، وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فإذا أشرفتم علىٰ مدنهم وبلادهم من مرقبٍ عالٍ ، لم تميِّزوا بينهم وبين أفراد أمَّةٍ جاهليَّةٍ ، سعيٌ وراء المادة في غير اقتصاد ، واكتسابٌ من غير احتساب ، سهرٌ في غير طاعة ، وعملٌ في غير نيَّةٍ ، وتجارةٌ في لهوٍ عن ذكر ٱلله ، وحرفةٌ في جهل عن دين ٱلله ، ووظيفةٌ في الإخلاص لغير ٱلله ، وحكومة في مشاقَّة ٱلله ، شغلٌ في ضلالة ، وقعودٌ في بطالة ، وحياةٌ في غفلةٍ ، وجهالة .

هل إذا اطلعتم ـ يا سادتي ـ علىٰ بلاد إسلاميَّةٍ ، ورأيتم هٰذه الأمة في غدواتها ، وروحاتها إلىٰ الأسواق ، والإدارات ، ومصالح الحكومة ؛ عرفتم : أنَّها أمة خلقت لشيءٍ آخر ، وبعثت لغرضٍ آخر أسمىٰ من هٰذه الأغراض التي

---

(١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد (٢٥١٢) .

يسعىٰ لها الكافر ، والمؤمن ؟ !

إنَّ هـٰذا الأسلوب من الحياة لَحجةٌ ظاهرة لأهل الجاهلية علىٰ المسلمين ، فلو نطقوا ؛ لقالوا : « ما ذنبنا ، أيُّها المسلمون ؛ إذ عرضنا علىٰ نبيِّكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبىٰ ، ورفض كلَّ ذٰلك ؟ ! ألا نراكم تسعون اليوم وراء الذي رفضه نبيُّكم بالأمس ، كأنَّما خلقتم لأجله ؟ فأيُّ الفريقين أشدُّ ذنباً : أمَّن عرض علىٰ محمد ﷺ المال ، والسيادة ، والملك تفادياً من الخلاف ، والنزاع ، فأبىٰ ، ورفض ، أمَّنْ تهافت علىٰ ما رفضه سيده تهافت الظمآن علىٰ الماء ، والفراش علىٰ النُّور ؟ !

وإذا كنتم اليوم لا يهمُّكم إلا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكم علىٰ قطعة أرض ؛ فلماذا تظاهرتم بالأمس بالدِّين ، وأقمتُم الدُّنيا ، وأقعدتموها لأجله ، وكدَّرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم ، وكنَّا في غنىً عن هـٰذه الحروب الطاحنة التي أيتمت البنين ، وأيئمت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان !

أعيدوا إلينا إذاً تلك الدِّماء التي أريقت في ساحة بدرٍ ، وأحدٍ ، وخيبر ، وحنين ، واليرموك ، والقادسية ، وأعيدوا إلينا تلك النفوس التي قتلت باسم الدِّين ، وأعيدوا إلينا تلك الأيام التي كنا نعيش فيها في وئامٍ ، وهدوءٍ ، لا نعرف فيها

إلا الأكل ، والشرب ، وقضاء مآرب النفس !

وماذا يكون جوابنا لو تعرَّض أحدٌ من أخلافهم الأحياء ، وقال : « ما غناؤكم أيها المسلمون ؟ ! لقد ساهمتمونا في أسباب الحياة ، وخلقتم لنا فوق ذٰلك مشكلاتٍ كثيرةً في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، ولا نراكم تسدُّون عوزاً ، أو تصلحون خللاً ، أو تلمون شعثاً ، أو تقيمون زيفاً في الحياة » .

عفواً أيُّها القراء ، وسماحاً أيُّها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديماً قال الشاعر العربي :

وفي العتاب حياةٌ بين أقوام

من المعلوم : أنَّ حياة الأمم بالرِّسالة ، والدعوة ، وأنَّ الأمَّة التي لا تحمل رسالة ، ولا تستصحب دعوة حياتُها مصطنعةٌ ، غيرُ طبيعيَّةٍ ، وإنَّها كورقةٍ انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسقيٍ ، أو ريٍّ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد : ١٧] .

إنَّنا ـ أيُّها القرَّاء ـ أمَّةُ الحاضر ، وأمَّةُ المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنَّصر ، لأننا أصحاب دعوةٍ ، ورسالة نبويَّةٍ ، وهي الرسالة الأبديَّة التي قضىٰ ٱلله بخلودها ، وظهورها ، فلسنا تحت سيطرة المادَّة ، وحكم الزمان ، بشرط

أن نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا ، ونعود أمَّة دعوةٍ نبويَّةٍ كما بدأنا ، دعوةٍ فيما بيننا معشر المسلمين ، ودعوةٍ في غيرنا من الأجانب في الدِّين .

لقد تخلَّفنا عن الأمم المعاصرة في العلوم الطبيعية ، والأسباب الحربيَّة ، وفي الأخذ بأسباب الرقيِّ الماديِّ بعدَّة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا ، وبينهم كمسابقة الأرنب ، والسلحفاة ، إلا أنَّ الأرنب كان ساهراً مع خفَّته ، وسرعته ، والسُّلحفاة نائمةٌ رغم بطئها ، وثقلها ، فلو حاربنا هٰذه الأمم اليوم لاستغرق ذٰلك قروناً ، ثمَّ كانت المقارنة بحسابٍ دقيقٍ ، فإذا أفاق العدو ، وسبقنا بشعرةٍ في القوة المادِّية ، والعُدد الحربيَّة ؛ رجحت كفَّته ؛ لأنَّ المادَّة عمياء ، وهي من القساوة ، والحياد التامِّ بمكانٍ لا تفرِّق فيه بين المحقِّ ، والمبطل ، والشريف ، والوضيع .

ولٰكنَّ الدَّعوة ، والرسالة ـ وهي الروح التي تقهر المادَّة ، وتسخِّر الأسباب ، وتستنزل النصر ـ تأتي بخوارق ، ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر ، وفتحت الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوَّة الدعوة ، والرِّسالة للمماليك ، والصعاليك ، وقد جرَّبت ذٰلك هٰذه الأمة مرَّتين بوضوحٍ في التاريخ :

مرة : لما خرج العرب من جزيرتهم إلىٰ البلاد الرُّوميَّة ،

والفارسية في ثيابٍ صفيقةٍ مرقَّعةٍ ، وفي نعالٍ وضيعةٍ مخصوفةٍ ، يحملون سيوفاً بالية الأجفان ، رثَّة المحامل ، علىٰ خيلٍ قصيرةٍ ، متقطعة الغرز ، وسرعان ما قهرت دعوتُهم ورسالتُهم وحياتُهم الأممَ الرُّومية ، والفارسيَّة ، التي كانت كدمىٰ كُسيت حللاً فاخرةً ، وأعواداً أسندت إلىٰ الجدار ، لحرمانها من رسالةٍ ، وقعودها عن دعوةٍ ، وكان الانتصار في الأخير للرِّسالة علىٰ النظام ، وللروح علىٰ المادَّة ، وللمعنىٰ علىٰ الظَّاهر .

ومرَّةً ثانيةً : لمَّا قهر التتر ـ ذٰلك الجراد المنتشر ـ العالم الإسلامي من أقصاه إلىٰ أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمةٌ ، ولم يقف في وجههم واقفٌ ، وكاد المسلمون يصبحون أثراً بعد عينٍ ، واستولىٰ اليأس علىٰ قلوبهم ؛ حتىٰ كان من الأمثال السائرة : « إذا قيل لك أن التتر انهزموا ؛ فلا تصدق » هنالك فعلت الدَّعوة الإسلاميَّة فعلها ، ونفذت فيهم ، فإذا القاهر يصبح مقهوراً ، وإذا الفاتح مفتوحاً لدين المفتوحين ، وإذا التتر يتلفظون بكلمة الإسلام ، ويدينون برسالة محمد ، عليه الصلاة والسلام ، ويصبحون أمَّةً إسلاميَّةً .

وإنَّ الرسالة الإسلاميَّة لتأتي بالمعجزات اليوم ، وتقهر الأمم طوعاً ـ لا كرهاً ـ بسلطانها الروحي ونفوذها العجيب .

إنَّ آباءكم ـ أيُّها السادة المسلمون ـ قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولىٰ ، ومراكزها الكبرىٰ ، يقولون : « ٱلله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام » وخلَّصوا الأمَّة الرُّومية من عبادة المسيح ، والصليب ، والأحبار ، والرُّهبان ، والملوك ، وخلَّصوا الأمة الفارسية من عبادة النَّار ، وعبادة البيت الكياني ، والأمَّة الطورانيَّة من عبادة الذئب الأبيض ، والأمَّة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها إلىٰ عبادة ٱلله وحده ، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، والعالم ينتظر منذ زمانٍ رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « ٱلله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادَّة والبطن ، إلىٰ عبادة ٱلله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس ، والأثرة ، والجشع الماديِّ إلىٰ سعة عالم القناعة ، والإيثار ، والزُّهد ، ونعيم الروح ، وطمأنينة القلب ، ومن جور النُّظم السياسيَّة ، والاجتماعية إلىٰ عدل الإسلام .

هٰذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الإسلامي ! وهٰذه الإنسانية البائسة تستصرخكم ، وتستغيثكم علىٰ أعدائها ، وليس العالم اليوم بأقلَّ ظمأً ، وأقلَّ فاقةً إلىٰ الدعوة الإسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وإنَّه لا يختلف عما

كان عليه في القرن السادس المسيحيِّ ، فهو غنيٌّ اليوم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف ، والصناعات ، وقد ضاق بالأمم ، والحكومات ، وطفح بالأعلام ، والرَّايات ، وفاض بالحركات والدَّعوات ، وضجر بطغيان الأهواء ، والنزعات ، وثورة الأعراض ، والشَّهوات ، فهو في ذٰلك لا يقبل علاوةً ، ولا يسمح بزيادةٍ ، فإذا لم يكن المسلمون إلا أمة من الأمم ليست لهم دعوة إلىٰ ٱلله ، ولا رسالة للإنسانية المتحضرة ، ولم يكن لهم همٌّ إلا أنفسهم ، وبطونهم ؛ لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضي الذي افتتح بالدَّعوة الدينية ، والجهاد في سبيلها ، ولا يبرر وجودهم في هـٰذا العصر ، فإنَّما نُصِروا ، واستُبْقوا بشريطة القيام بالعبادة ، والدَّعوة إليها .

والدعوة إلىٰ ٱلله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغةً في خارطة العالم ، لا تشغلها أمَّةٌ ، ولا دعوةٌ ، فإذا عمرها المسلمون ؛ أحسنوا إلىٰ الإنسانية ، وإلىٰ أنفسهم ، وأمسكوا هـٰذا العالم المتمدِّن الذي قد كاد يهوي في الهاوية !

✍ ✍ ✍

معقلُ الإنسانيّة

كان وجود الأمّة الإسلاميّة في كلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم رمزاً لحقيقةٍ غير الحقائق المادِّية ، واللَّذات الجسديَّة ، وكان كلُّ فردٍ من أفراد هـٰذه الأمَّة يعلن للعالم ـ وليداً أو ميتاً ـ : أنَّ وراء القوىٰ المادِّية قوةً سماويةً ، ووراء الحياة الفانية حياةً خالدةً ، فإذا ولد وليد ؛ صُرِخ في أذنه بهـٰذه الحقيقة ، وإذا مات ؛ فارق الدنيا بهـٰذه الشهادة .

إذا ساد علىٰ هـٰذا العالم جمودٌ أشبه بالموت ، وغاص الناس في بحر الحياة إلىٰ أذقانهم ، واختفت كلُّ حقيقة وراء الحقائق المادِّية إذا بصوت يدوِّي : « حيَّ علىٰ الصلاة ، حيَّ علىٰ الفلاح ، فينكسر طلسم العالم الماديِّ ، وتتجلَّىٰ الحقيقة الرُّوحية ، ويجري الناس وراء هـٰذا الصوت ، وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم ، وخرُّوا أمام ربِّهم . وإذا ضرب الليل رواقه ، ومدَّ النَّوم أطنابه علىٰ هـٰذا العالم الحيِّ الصاخب ، فإذا هو مقبرةٌ واسعةٌ ليس بها داعٍ ولا مجيبٌ إذا بمعين الحياة ينصبُّ في وادي الموت ، فينبلَج الصُّبح الصادق في الليل

الغاسق ، وتتلقَّىٰ الإنسانيَّة الناعسة من مؤذن الفجر درساً في الحيــاة ، والنشــاط ، والكــدح ، والكفــاح ، والشُّكــر ، والعبادة . وإذا اعتزَّ أحدٌ بقوَّته وسلطانه ، وزها بكثرة مَلَئِه وأعوانه ، وقال بلسان المقال ، أو بلسان الحال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أو : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قام رجل متواضعٌ علىٰ منصَّةٍ عالية في كلِّ بقعة من بقاع مملكته ، أو نفوذه ، ونادىٰ : « ٱلله أكبر ! ٱلله أكبر ! » فينادي بحكم ٱلله في مملكته ، ويُرْغِمُ أنف الإلـٰه الكاذب في سلطانه .

إذا هاجرت جاليةٌ مسلمةٌ من رقعةٍ من رقاع هـٰذه الأرض ، أو أُجليت منها ؛ لم يصب نظام المعيشة بشللٍ ، أو خللٍ ، وظلَّ الناس يتكسَّبون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وظلَّت رحىٰ الحياة تدور دورها الطبيعي ، ولـٰكن روح ذٰلك المجتمع الإنسانيِّ تفارق جسدَه ، فيصير جثَّةً هامدةً لا حياة فيها ، ولا روح ، كذٰلك كان في إسبانيا ، وكذٰلك كان في كلِّ بقعةٍ انسحب منها المسلمون ، أو أجلاهم عنها أهلُها ، وهل إسبانيا الحاضرة إلا مدينةٌ بلا روح ، وحياةٌ بلا مبدأ ، وأمَّة بغير رسالة للعالم !

إنَّ المؤمن وحدَه هو صاحب عاطفةٍ في هيكل العقل ، والمادَّة ؛ الذي لا يعبد فيه إلا النَّفس ، والبطن ، وهل الحياة إلا بالعاطفة ؟ وهل الدُّنيا إذا نامت العاطفة ، وغلب العقل ،

وحكمت المادة ، إلا سوق تجارةٍ ، أو ميدان حربٍ ؟ فإذا ثار المؤمن للحقِّ كسر طلاسم العقل ، وفكَّ سلاسل الكون ، وحطَّم أصنام المادَّة ، وأملىٰ علىٰ العالم إرادة ٱلله ، فإذا هو مطيعٌ خاضعٌ ، وإذا هو متواضعٌ خاشعٌ ، قلبَ تيَّار الحياة ، وغيَّر وجه التاريخ ، وأرغم الكون علىٰ أن يسير سيرته .

حالتْ دجلة في سبيل المسلمين دون المدائن ، وكانت السَّنةُ كثيرة المدود ، ودجلة تقذف بالزَّبد ، فجمع سعدُ الناس ، فحمد ٱلله ، وأثنىٰ عليه ، وقال : (ألا إني قد عزمت علىٰ قطع هٰذا البحر إليهم) فقالوا جميعاً : (عزم ٱلله لنا ولك علىٰ الرشد ، فافعل !) فندب الناس إلىٰ العبور ، وأذن لهم في الاقتحام ، وقال : (قولوا : نستعين بٱلله ، ونتوكل عليه ، حسبنا ٱلله ونعم الوكيل ! وٱلله لينصرنَّ ٱلله وليَّه ، وليظهرنَّ دينه ، وليهزمنَّ عدوَّه ، ولا قوَّة إلا بٱلله العلي العظيم !) ، وتلاحق الناس في دجلة ، وهم يتحدَّثون كما يتحدَّثون في البر ، وطبقوا دجلة حتىٰ ما يرىٰ من الشاطئ شيءٌ[(١)] .

نزل طارق بالأندلس ، والبحر وراءه ، والعدوُّ أمامه ، والمستقبل رهيبٌ ، والطريق مظلمٌ ، والأرض كِفَّة حابلٍ ، والعدد زهيدٌ ، والمدد بعيدٌ ، فهزئ بأشباح المادة المخيفة ،

---

(١) الكامل لابن الأثير (ج٣ ص١٩٨) .

وعاند العقل ، وأمر بإحراق السُّفن التي ترجع به إلىٰ بلاده [1] ، وعزم علىٰ الفتح ، وأيقن بالنَّصر ، فهزم العدوَّ ، وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين .

أراد عقبة بن نافع أن يتَّخذ مدينةً في أفريقية ، يكون بها عسكرُ المسلمين ، وأهلُهم ، وأموالُهم ؛ ليأمنوا من ثورةٍ تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان ، وكانت وحلةً مشتبكة ، بها من أنواع الحيوان من السباع ، والحيَّات ، وغير ذٰلك ، فدعا ٱلله ـ وكان مستجاب الدعوة ـ ثمَّ نادىٰ : أيَّتها الحيَّات والسِّباع ، إنَّا أصحاب رسول ٱلله ﷺ ارحلوا عنا ، فإنَّا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذٰلك قتلناه ! فنظر الناس ذٰلك اليوم إلىٰ الدوابِّ تحمل أولادها ، وتنتقل ، فرآه قَبِيْلٌ كثيرٌ من البربر ، فأسلموا [2] .

خرج محمد بن القاسم ـ وهو ابن سبع عشرة سنة ـ لغزو الهند ، ومعه حفنةٌ من الناس ، والبحار حائلةٌ ، وبلاد العدوِّ واسعةُ الأطراف ، وعرةُ المسالك لم يجرِّبها العرب ، فهزئ بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الإيمانُ القوَّةَ ، وغلب الروحُ المادَّةَ ، وإذا بالهند ـ من السِّند إلىٰ الملتان ـ خاضعةٌ للمسلمين .

---

(١) نفح الطيب (ج١ ص١٣١) .

(٢) الكامل لابن الأثير (ج٣ ص٣٣٤) .

إنَّ العالم كلَّه مدينة الأوهام ، والمؤمن وحدَه هو صاحب يقينٍ لا يزول ، وعقيدةٍ لا تتحوَّل ، وهو في يقينه في عالم الأوهام كمصباح الراهب في الغابة المظلمة ، ومنارة النور في بحر الظلمات ، والجزيرة التي يأوي إليها اليائسون ، والطَّود الذي لا تزحزحه السُّيول ، ولا تزلزله العواصف ، وقد يتمسَّك بيقينه ، ولا يوافقه علىٰ ذٰلك أحد ، ولا يصدِّقه أحد ، فلا تخور عزيمتُه ، ولا تلين عريكتُه ، ولا يرتاب ولا يتلبَّد ، والناس بين معارضٍ ومنتقد ، ومطيعٍ كارهٍ ، أو مخالف معتزلٍ ، وهو لا يحفل بذٰلك ، ويمضي كالسيف ؛ حتىٰ يهزم يقينُه ألفَ جندٍ من الشك ، وينقشع سحاب الأوهام ، ويظهر يقينُه مثل فلق الصبح .

استعمل النبيُّ ﷺ أسامة بن زيد علىٰ جيشٍ ، وأمره بالتوجُّه إلىٰ الشام ، وتُوفي النبي ﷺ ولم يَسِرِ الجيش ، وارتدَّت العرب إمَّا عامَّة أو خاصَّة من كل قبيلةٍ ، وظهر النِّفاق ، واشرأبَّت يهودُ والنَّصرانية ، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيهم ، وقلَّتهم ، وكثرة عدوِّهم ، فقال الناس لأبي بكر : إنَّ هٰؤلاء ـ يعنون جيش أسامة ـ جند المسلمين ، والعرب علىٰ ما ترىٰ ، فقد انتقضت بك ، فلا ينبغي أن تفرِّق جماعة المسلمين عنك ! فقال أبو بكر : (والذي نفسي بيده لو ظننت : أنَّ السباع تختطفني ؛ لأنفذت

جيش أسامة ، كما أمر النبي ﷺ !) فخاطب الناس ، وأمرهم بالتجهيز للغزو ، وأن يخرج كلُّ من هو من جيش أسامة إلىٰ معسكره بالجرف ، فخرجوا كما أمرهم ، وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم ، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلمَّا خرج الجيش إلىٰ معسكرهم بالجرف ، وتكاملوا ، أرسل أسامةُ عمرَ بن الخطَّاب ـ وكان معه في جيشه ـ إلىٰ أبي بكرٍ ، يستأذنه أن يرجع بالناس ، وقال : إنَّ معي وجوه الناس ، وجلدتهم ، ولا آمن علىٰ خليفة رسول ٱلله ، وحرم رسول ٱلله ، والمسلمين أن يتخطَّفهم المشركون ! وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب : إنَّ أبا بكر خليفةُ رسول ٱلله ، ألا فامض ، فأبلغه عنَّا ، واطلب إليه أن يولِّي أمرنا أقدم سنّاً من أسامة ! فخرج عمر بأمر أسامة إلىٰ أبي بكر ، فأخبره بما قال أسامة ، فقال : لو خطفتني الكلاب ، والذئاب ؛ لأنفذته كما أمر به رسول ٱلله ﷺ ولا أردُّ قضاءً قضىٰ به رسول ٱلله ﷺ ولو لم يبق في القرىٰ غيري ؛ لأنفذته ! ! قال عمر : فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر ـ وكان جالساً ـ وأخذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك أمُّك يابن الخطاب ، استعمله رسول ٱلله ﷺ وتأمرني أن أعزله ؟ !

وسار أسامة ، وأوقع بناسٍ من قبائل قضاعة التي

ارتدَّت ، وغنم ، وعاد ، وكانت غيبته أربعين يوماً ، وقيل : سبعين ، وكان إنفاذ جيش أسامة أعظمَ الأمور نفعاً للمسلمين ، فإنَّ العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوَّةٌ ؛ لما أرسلوا هٰذا الجيش ، فكفُّوا عن كثيرٍ ممَّا كانوا يريدون أن يفعلوه (١) .

إنَّ العالم سوقٌ لا رحمة فيها ، ولا شفقة ، ولا مسامحة فيها ، ولا كرم ، والمؤمن وحدَه هو الذي يُؤْثِرُ علىٰ نفسه ؛ ولو كان به خصاصة ، ويسامح مدينه وعدوَّه ، ويتنازل عن ملكٍ واسعٍ ، وعَرَضٍ قريب طمعاً في الأجر ، ومحافظةً علىٰ الكرم .

تغلَّب ملكٌ كافر علىٰ دولةٍ إسلاميَّةٍ في بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة ، وخرج محمود شاه الخلجي صاحب مالوه من بلاده هارباً عنه إلىٰ غجرات ، فنهض السُّلطان مظفر الحليم ـ وكان الخلجي لا يزال علىٰ القلعة ـ وشرع في المحاصرة وجدَّ في أسباب الفتح ، ودخل القلعة عنوةً ، ووضع السيف فيهم ، وكان آخر أمرهم : أنَّهم دخلوا مساكنهم ، وغلقوا الأبواب ، وأشعلوها ناراً ، واحترقوا وأهليهم ، وبلغ عدد القتلىٰ من الكفرة تسعة عشر ألفاً ، سوىٰ من أغلق بابه ، واحترق ، وسوىٰ أتباعهم ، فلما وصل

---

(١) الكامل لابن الأثير (ج٣ ص١٣٧ ـ ١٣٨) .

السلطان إلىٰ دار سلطنة الخلجي التفت إليه ، وهنأه بالفتح ، ودعا له بالبركة في ملكه ، وقال له : بسم ٱلله ادخلوها بسلام آمنين ، وعطف عنانه خارجاً من القلعة إلىٰ القباب ، وهيأ الخلجي الضيافة ، ونزل إلىٰ مظفر شاه السُّلطان ، وسأله التشريف بالطلوع ، فأجابه ، فلمَّا فرغ من الضيافة ؛ دخل به في الأبنية التي هي من آثار أبيه وجدِّه ، فأعجب بها ، وترحَّم عليهم ، ثم جلسا في جانبٍ منه ، وشكره الخلجي ، وقال : الحمد لله الذي أراني بهمَّتك ما كنت أتمنَّاه بأعدائي ، ولم يبق لي الآن أربٌ في شيءٍ من الدنيا ، والسلطان أولىٰ بالملك منِّي ، وما كان له فهو لي ، فأسألك قبول ذٰلك ، وللسلطان أن يقيم به من شاء ! فالتفت السلطان إليه ، وقال له : إنَّ أول خطوة خطوتها إلىٰ هٰذه الجهة كانت لله تعالىٰ ، والثانية كانت لنصرتك ، وقد نلتُها ، فٱلله يبارك لك فيه ، ويعينك عليه ! وسأله أركانُ دولته أن يستأثر بدولة الخلجي ، فالتفت إلىٰ محمود ، وقال له : احفظ باب القلعة برجالٍ لا يدَعوا أحداً يدخلها بعد نزولي ؛ حتىٰ مَنْ ينتسب إليَّ ! وانصرف إلىٰ بلاده [1] .

العالم بلادٌ لا يعيش فيها إلا مَنْ يحمل في جنبه قلباً كأنما

---

(١) نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني ج ٤ .

قُدَّ من حجر ، لا يعرف الحنان والرحمة ، ولا يعرف معنىٰ الحبِّ والإيثار ، والمؤمن وحده هو الذي يحمل في جنبه قلباً يفيض حناناً للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدَّة ، والصلابة والرقَّة ، وشكيمة الأسد وحنان الأمِّ ، تخلَّق بأخلاق ٱلله ، فجمع بين الرأفة والعزَّة ، والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرَّسول ﷺ فلا يغضب لنفسه ، حتىٰ إذا تُعدي الحقُّ ؛ لم يقم لغضبه شيء ، فبينما تراه في ساحة الجهاد كأنَّه نارٌ في حطب ، أو منجلٌ في حقل ، ليس له عاطفة ، ولا قلب إذا به تراه في الصلاة تهمل عيناه ، ويغلي صدرُه كالمرجل ، وتراه يرقُّ للضعيف ، ويحنو علىٰ الأرملة ، واليتيم ، قد جمع بين حلاوة العسل ، ومرارة الحنظل ، إلا أنَّ الأُوْلىٰ له سجيةٌ ، وطبيعةٌ ، والثانية له وسيلةٌ ، وذريعةٌ ، فهو ينشد بلسان الحال :

وإنـــي لَحُلْــوٌ تعتــريني مــرارةٌ (١)

ولا يدع السماحة والكرم حتىٰ مع العدوِّ ، ولا يترك التمسُّك بالأخلاق العالية في ساحة القتال .

هـٰذا صلاح الدين ـ الذي صار مثلاً في شدَّته وجلادته ـ تستغيث به امرأة اختُطف ولدُها ، فهي تبكي بكاء الثكلىٰ ، فيرقُّ لها بطل حطِّين ، ويطوف بها علىٰ القبائل ، والمنازل ،

---

(١) شطر بيت لسيدنا حسان بن ثابت .

حتىٰ تعرف ابنها ، وتضمَّه إلىٰ صدرها .

وهاهو يهدي إلىٰ قِرْنه ، وأعدىٰ عدوِّه في العالم : « ريتشارد » الثلج ، والفواكه في مرضه [١] .

الناس من خوف الموت في الموت وأشدُّ من الموت ، يعدُّون هٰذه الحياة رأسَ مالهم ، ومنتهىٰ آمالهم ، فليس من الغريب أن يودَّ أحدُهم لو يُعَمَّر ألف سنة ، حتىٰ إذا جاءه الموت ؛ خرج من الدنيا حزيناً متلهِّفاً علىٰ ما يفارقه ، كارهاً ، مستبشعاً لما يستقبله .

أما المؤمن فهو دائمُ الحنين إلىٰ ربِّه ، شديدُ الشوق إلىٰ جنَّته ، لا يبالي أوقع عليه الموت ، أم علىٰ الموت وقع ، يستقبل الموت باسم الثَّغر ، جَذِلَ القلب ، فرحاً مستبشراً ، كأنَّما هو خارج من السِّجن ، أو عائدٌ إلىٰ الوطن .

لمَّا طعن جبارُ بن سلمىٰ عامرَ بن فهيرة يوم بئر معونة ، فأنفذه ؛ قال عامر : « فزت وربِّ الكعبة ! » [٢] . ولما ضرب ابن ملجم عليَّ بن أبي طالب ، قال : « فزت وربِّ الكعبة ! » [٣] .

---

(١) الفتح القسِّي في الفتح القُدسي : لعماد الدين الكاتب .

(٢) طبقات ابن سعد .

(٣) كتبا المتفجمين لمحمود بن محمد بن الفضل .

قام أبو عبيدة في الناس في طاعون عمواس ، فقال : أيُّها الناس ! إنَّ هـٰذا الوجع رحمةُ ربِّكم ، ودعوةُ نبيِّكم ، وموت الصَّالحينِ قبلَكم ، وإنَّ أبا عبيدة سأل ٱلله أن يقسم له منه حظَّه ! فطُعِن ، فمات ، واستخلف علىٰ الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيباً بعده ، فقال : أيُّها الناس ! إنَّ هـٰذا الوجعَ رحمةُ ربِّكم ، ودعوة نبيِّكم ، وموت الصَّالحين قبلكم ، وإنَّ معاذاً يسأل ٱلله أن يقيم لآل معاذٍ حظَّهم ! فطُعِن ابنُه عبد الرحمـٰن ، فمات . ثمَّ قام فدعا به لنفسه ، فطُعِن في راحته ، فلقد كان يقبِّلها ، ثم يقول ، ما أحبُّ : أنَّ لي ما فيك شيئاً من الدُّنيا [١] .

وحضر بلالاً الوفاةُ ، فقالت امرأته : واحزناه ! قال : « بل واطرباه ! غداً نلقىٰ الأحبَّة محمداً ، وحزبه ! » [٢] . وكذٰلك روي عن عمَّار : أنَّه كان قال ذٰلك عند وفاته [٣] .

المؤمن هو الذي يستطيع أن يفضِّل الفقر علىٰ الغنىٰ ، والآخرة علىٰ الدنيا ، والنسيئة علىٰ النَّقد الحاضر ، والغيب علىٰ الشُّهود ، والدِّين علىٰ الحياة في كلِّ دورٍ من أدوار

---

(١) الكامل لابن الأثير (ح٣ ص٣١٦)

(٢) الغزالي في الإحياء عن ابن أبي الدنيا .

(٣) الطبراني .

التاريخ ، مهما بلغت المادَّة أَوْجَها .

ليس لقطرٍ من الأقطار أن يمنَّ علىٰ الإسلام بأنَّه فسح له في أرضه ، وإنَّما الفضل ، والمنَّة للإسلام علىٰ كلِّ قطر ، فقد ألقىٰ عليه درساً في التوحيد الذي لا يشوبه شركٌ ، وحبِّ الإنسانية العامَّة ، واحترامها ، ووسَّع أفق خياله ، فصار يرىٰ للحياة معنىً غير معنىً ، وللإنسانية مستوىً أرفع من مستواها القديم ، وعالَماً أفسح من وكره الذي يعيش فيه ، إنَّه وضع عن كلِّ أمة إصْرَها ، والأغلال التي كانت عليها ، وأنقذها من العنصرية ، والجنسية ، والوطنية ، وعبادة المال ، والبيوتات ، والأشجار ، والأحجار ، والحيوانات ، والأنهار ، والأرواح ، والأجرام السَّماويَّة ، ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنيَّة ، والعزبة القاطعة للنَّسل ، وهو الذي طلسم الأوهام التي مضىٰ عليها قرونٌ ، ودرج عليها أجيالٌ ، أطلق العقل من إساره ، ورفع الحَجْر عن العلم ، ونسخ احتكار البيوتات للدِّين ، ورسم في الذهن منزلة العمل الفرديِّ ، والسعي الشخصيِّ ، واستقلال كل إنسان بعمله ومسؤوليته ، ومَن الذي يستطيع أن ينكر : أنَّ الفضل في تقدُّم العالم ، وقطع مراحل المدنية والعلم إنما يعود إلىٰ الإسلام ، ومَن الذي يجهل اليوم : أنَّ الفضل في تقدُّم أوربا ، وتخلُّصها من رقِّ الأحبار ، والرُّهبان ، وسلاسل الكنيسة ، والحكم المطلق ،

وفي العكوف علىٰ العلوم الطبيعية ، والتجريبيَّة ، والخروج من الهمجيَّة إلىٰ الحضارة إنَّما يعود إلىٰ الأندلس الإسلاميَّة التي ظلَّت قروناً طوالاً مشعل الثقافة ، ومنبع العلم ، ومدرسة الفنِّ والتهذيب في العصور المظلمة ! إنَّ كلمات العدل ، والمساواة ، والإنسانيَّة منتشرةٌ ذائعةٌ اليوم في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الهند ، وبارزةٌ علىٰ كلِّ صفحةٍ من صفحات أدبائها ، وكتَّابها ، وخفيفةٌ علىٰ لسان كلِّ خطيبٍ ، ومتكلِّمٍ ، ومن ذا يكابر في أنَّ الإسلام هو الذي عرَّف هـٰذه الكلمات إلىٰ أهل البلاد ، وسعىٰ في رواجها ، وذيوعها في بلادٍ لم تكن تُعرف إلىٰ أهل هـٰذه الكلمات ، ومعانيها .

إنَّ المسلمين ليسوا نسلاً ، أو شعباً فحسب ، وليس للإسلام عاداتٌ ، وتقاليدُ ، وتراثٌ يتوارثه ولدٌ عن أبيه ، إنَّه دعوةٌ ، ورسالةٌ ، وحياةٌ ، وعقيدةٌ ، تقتضي بالطبع أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات المحسوسات ، ومن عالم النفوس ، والبطون ، ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التي ولد فيها ، وأن يكون قلبه عامراً بحبِّ كلِّ إنسانٍ كائناً مَنْ كان ، وألا تكون الأوطان ، والأنساب عائقاً في سبيل حبِّه وعطفه ، وألا يكون سعيه منحصراً في نطاق الحياة الضيِّق ، يلزم لكل من يدين بهـٰذا الدِّين أن يحمل للبشرية رسالةً للروح ، والقلب ، والعاطفة ، والسياسة ، والاجتماع ، ويملك قوةً

أخلاقيَّةً تراقبها في النور والظلام ، والوحدة ، والاجتماع ، والعجز ، والمقدرة ، عنده أساس متينٌ من العلم ، وبيناتٌ محكماتٌ في المدنيَّة ، وحياة نبي كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية في مختلف ظروفه ، وأحواله ، ومختلف عصوره وأجياله ، وكلِّ عصرٍ ، وقطر ، ومفزع الإنسانية في كلِّ ساعةٍ عصيبةٍ ، وكلما حلَّت بها أزمةٌ عجزت عن حلِّها العقول البشرية ، والنُّظم الاجتماعية ، والسياسية .

إذا حجب اللَّيل النَّهار ، وهجمت جنود الهوىٰ من كلِّ جانب ، وهُزمت الفضيلة ، والأخلاق ، وإذا أصبح الإنسان ينحر أخاه لأجل فلسٍ ، أو لأجل قرصٍ ، وإذا أصبحت الشعوب الكبيرة تزدري الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع ، أو الخيلاء ، وإذا صار وثن المال يعبد علىٰ قارعة الطريق ، وإذا ضحي بألوف من الناس علىٰ أنصاب الجنسية ، والوطنية ، إذا حال الإنسان بين الإنسان ورزقه ، إذا التهبت نار الشهوات ، وانطفأ نور القلب ، إذا نسي الإنسان الموت ، وعكف علىٰ الحياة يعبدها ، إذا غلا الجماد ، والمعدن ، ورخص الإنسان في سوق العالم ، فصارت المدن العامرة تسوَّىٰ بها الأرض ، وألوف من البشر يقتلون في دقائق وثوان بالقنبلة الذرية ، إذا تغلبت الأمم الأوروبية علىٰ العالم ، وجعلته بيت المقامرين ، أو سوق الجزارين ، وعبثت الإنسانية عبث الوليد بجانب

القرطاس ، وتلاعب بالأمم كالكرة ، إذا ظهر الفساد في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ؛ هنالك يَسْتَصْرِخُ هٰذا الكونُ المؤمنَ ، ويَسْتَغيثُ به ، وهنالك تناديه الإنسانية باسم الإسلام الذي طلع كالصبح الصادق في ظلام الليل الحالك ، وباسم محمد ﷺ الذي أغاث ٱللهُ به الإنسانيةَ في احتضارها ، وانتحارها ، وحفظ به مهجة الإنسانية ، وأدال به من الجاهلية الجهلاء .

فهل يسمع المؤمن في جزيرة العرب التي أشرقت منها شمس الإسلام ، وفي حواضر البلاد العربية في آسيا ، وإفريقيا ، وفي الأقطار الإسلاميّة عامّةً ، صراخ الإنسانية ، وعويلها ، فيهبُّ من نومه العميق الطويل الذي ملَّه العالم ، ويثب كالأسد ، وينقضُّ كالصقر علىٰ أعداء الإنسانيّة ؟ ! إنّه بذٰلك لجدير ، وبحول ٱلله علىٰ ذٰلك قدير ! فهو معقل الإنسانية ، ومنتهىٰ الرجاء ، وأمين ٱلله في الأرض ، وخليفة الأنبياء !

يَـدْعُـوْنَ سيَّـاراً إذا احْمَـرَّ القنـا

وَلِكُـلِّ يَـوْمِ كَـرِيْهَـةٍ سَيَّـارُ

✍ ✍ ✍

المَدُّ والجَزْرُ
في تاريخ الإسلام

حال العرب قبل الإسلام :

كان العرب قبل الإسلام أمةً كادت أن تكون منعزلةً عن العالم ، قد فصلتها عن العالم المتمدِّن المعمور البحار من ثلاث جوانب ، وصحراء من جانب ، وكانت من الانحطاط ، والانقسام ، والضَّعة ، والخمول بمكان لا تطمع فيه حيناً من الدَّهر إلىٰ غزو البلاد ، ولا تحلم بالانتصار علىٰ الدُّول المجاورة لها في المنام ، ولا تحدِّث به نفسَها يوماً من الأيام .

هٰذا ، ودولتا فارس ، والروم يؤمئذٍ سيدتا العالم ، وزعيمتا الشرق والغرب ، وقد أحاطت مملكتاهما بشبه جزيرة العرب إحاطة السِّوار بالمعصم ، وإنَّما زهد الفرس ، والرومان في فتح هٰذه الجزيرة لوعورتها ، وقلَّة خيراتها ومواردها ، وما يكلفهم ذٰلك من رجالٍ ، وأموالٍ هم في غنىً عن إنفاقها في هٰذه الصحراء المُجدبة ، وفي هٰذه الأمَّة الفقيرة ، وإنَّما

اكتفوا برقابتهم السياسية عليها ، وبإمارتهم التي أنشؤوها علىٰ ثغور هٰذه الجزيرة الواسعة ، ولهواتها [1] .

هٰكذا كانت هٰذه الأمَّة التي ما كانت لتمثل دوراً مدهشاً في تاريخ العالم عن قريب ، كانت أمَّةً بدويَّةً موهوبةً ـ ولٰكن مواهب ضائعةٌ ـ لا يرفع الناس بأفرادها في العراق ، والشام ، ومصر رأساً إذا مرُّوا بهم تجاراً ، أو ممتارين [2] ، ولا يحسبون لهم حساباً ، ولا يهمُّهم مِنْ شأنهم إلا ما يهمُّ أهل المدن شأن الأعراب المستغربين في اللِّباس ، والصورة ، واللسان ، ولا يذكرونهم ـ إذا ذكروهم ـ إلا بذلاقة لسانهم ، وفصاحة منطقهم ، وشجاعتهم ، وجودة خيلهم ، ووفائهم ، إلىٰ غير ذٰلك ممَّا قد تعرفه الأمم المتمدِّنة عن الأمم البدويَّة .

آراء رجال ذٰلك العصر في العرب :

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند أهل العالم قبل الإسلام ، والنظرة التي كان ينظر إليهم بها جيرانُهم في الشرق ، والشمال [3] ؛ فاستعرض الآراء التي أبداها رجال ذٰلك العصر ، من أهل البصر ، والمعرفة ، ووافق عليها العرب

---

(١) **لهواتها** : أطرافها البعيدة .

(٢) **الممتار** : مَنْ يجلب الميرة ، وهي الطعام .

(٣) كان جيران العرب في الشرق الفرس ، وجيرانهم في الشمال الرومان .

أنفسهم ، وزادوا عليها ، فممَّا حفظه لنا التاريخ من هٰذه الآراء ما قاله امبراطور الدَّولة الفارسية لسفراء المسلمين .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدِّمشقي بعد ما ساق حديث رسل المسلمين في مجلس يزدجرد :

« قال : « فتكلَّم يزدجرد ، فقال : إنِّي لا أعلم في الأرض أمَّة كانت أشقىٰ ، ولا أقلَّ عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنَّا نوكل بكم قرىٰ الضواحي ليكفوناكم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عددكم كثر ؛ فلا يغرَّنكم منَّا ، وإن كان الجَهْدُ [1] دعاكم ؛ فرضنا لكم قوتاً إلىٰ خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملَّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم ! » فقال المغيرة بن شعبة :

« أيُّها الملك ! إنَّك قد وصفتنا صفةً لم تكن بها عالماً ، فأمَّا ما ذكرت من سوء الحال ؛ فما كان أحدٌ أسوأ حالاً منَّا ، وأما جوعنا ؛ فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس ، والجعلان ، والعقارب ، والحيات ، ونرىٰ ذٰلك طعامنا ، وأما المنازل فإنَّما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضُنا بعضاً ، وأن

(١) المشقة ، والبلاء .

يبغي بعضنا علىٰ بعض ، وإن كان أحدُنا ليدفن ابنته ؛ وهي حيَّةٌ كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم علىٰ ما ذكرت لك ، فبعث ٱلله إلينا رجلاً . . . إلخ [1] .

وجاء في هـٰذا الكتاب أيضاً :

« . . . وقد بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ؛ ليكلِّمه ، فذهب إليه المغيرة بن شعبة ، فذكر من عظم ما رأىٰ عليه من لبسه ، ومجلسه ، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب ، واستهانته بهم ، وإنَّهم كانوا أطول الناس جوعاً ، وأبعد الناس داراً ، وأقذر الناس قذراً ، وقال : ما يمنع هـٰؤلاء الأساورة [2] حولي أن ينتظموكم [3] بالنُّشَّاب ، ألا تنجُّساً مِنْ جيفكم ، فإن تذهبوا ؛ نخلِّ عنكم ، وإن تأبوا نوردْكم مصارعكم ! قال : فتشهدت ، وحمدت ٱلله ، وقلت : لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت حتىٰ بعث ٱلله رسوله . . . إلخ [4] .

وفي هـٰذا الكتاب أيضاً :

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص٤١ ـ ٤٢) .

(٢) **الإسوار عند الفرس** : القائد ، جمعه : أساور ، وأساورة .

(٣) **ينتظموكم** : يشكُّوكم .

(٤) البداية والنهاية (ج٧ ص١٠٩) .

« وذكر الوليدُ بن مسلم : أنَّ ماهان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفَّين ، فيجتمعا في مصلحةٍ لهم ، فقال ماهان : إنَّا قد علمنا : أنَّ ما أخرجكم من بلادكم الجَهْدُ ، والجوع ، فهلمُّوا إلىٰ أن أعطي كلَّ رجلٍ منكم عشرة دنانير ، وكسوةً ، وطعاماً ، وترجعون إلىٰ بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل [1] ؛ بعثنا لكم بمثلها » .

وهٰذا كلُّه يدلُّ علىٰ ما كان يساوي العرب عند الرُّوم ، وعلىٰ ما كان لهم من قيمةٍ ، ومنزلةٍ عندهم .

تغيَّر حال العرب بالإسلام :

ولٰكن سرعان ما تغيرتِ الأحوال ، وانقلبت الحقائق ، وبطلت التجارب السابقة ، وتاه العقل ؛ إذ خرج هٰؤلاء الأعراب من صحرائهم ، يفتحون ، ويقهرون ، ويغلبون ، ويُخضعون ، تدفَّق هٰذا السيل من مدينة الرَّسول ﷺ عاصمة العرب الإسلاميَّة لإحدىٰ عشر سنة للهجرة النبويَّة ، واثنين وثلاثين وستمئة لميلاد المسيح ، فغلب كلَّ شيءٍ اعترضه في الطريق ، وطما [2] علىٰ السَّهل والجبلِ ، ولم تكن جيوش

---

(١) البداية والنهاية (ح٧ ص١٠) .

(٢) علا ، وغطَّىٰ .

فارس ، والروم ، ومصر ، وغيرها المعدودة بمئات الألوف ، الشَّاكَّةُ السِّلاح[1] ، الشديدة البطش ، التي كانت الأرض تزلزل بها زلزالاً ، لم تكن هـٰذه الجنود المجندة إلا حشائش في هـٰذا التيار الجارف ، فلم تعق سيره ، ولم تغيِّر مجراه ؛ حتىٰ فاض في مروج الشام ، وفلسطين ، وسهول العراق ، وفارس ، وربوع مصر ، والمغرب الأقصىٰ ، وأودية هملايا ، سال هـٰذا السَّيل القويُّ بالمدنيَّات العتيقة ، والحكومات المنظمة القويَّة ، والأمم العريقة في المجد ، والسُّلطان ، فأصبحت خبراً بعد عين : ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ : ١٩] .

خرج العرب من جزيرتهم فاحتكُّوا بالفرس ، والرُّوم ، وكان العرب يكرهون وجوههم[2] ، ويرهبون سطوتهم في ديارهم ، ولـٰكن هانوا عليهم في هـٰذه المرَّة ، فغزوهم في عقر دارهم ، ونزلوا بساحتهم ، فما لبثوا أن مزَّقوا جموعهم شرَّ

---

(١) **الشاكَّة السلاح** : التامة السِّلاح ، أو الحادَّة السلاح .

(٢) قال الطبري : عندما أراد عمر فتح فارس ؛ تخوَّفوا من الفرس ، وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم ؟ وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدَّة سلطانهم ، وشوكتهم ، وعزِّهم ، وقهرهم الأمم . (تاريخ الطبري ج٤ ص : ٦١) .

ممزق ، وثلُّوا عروشهم [1] ووطؤوا تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم ، واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم ، وسبوا ذراريهم ، ومزَّقوا رداء فخرهم ، وعظمتهم ، فلم يُرْقع أبداً ، وكسروا شوكتهم ، فلم تعد أبداً ، وهلك كسرىٰ ، فلا كسرىٰ بعده ، وهلك قيصر ، فلا قيصر بعده .

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

خرج هـٰؤلاء العرب من جزيرتهم في ثيابٍ صفيقةٍ [2] مرقَّعةٍ ، ونعالٍ وضيعةٍ مخصوفةٍ [3] ، يتقلَّدون سيوفاً بالية الأجفان [4] رثة المحامل ، علىٰ خيلٍ بعضها عارية الظهور ، متقطعة الغَرْزِ [5] ، قد بلغ بهم البعد عن المدنيَّة إلىٰ حدٍّ أنَّهم كانوا يحسبون الكافور ملحاً ، وربما استعمله بعضُهم في العجين [6] .

---

(١) **ثلُّوا عروشهم** : هدموها .

(٢) **صفيقة** : كثيفة النسيج .

(٣) **خصف النَّعل** : خرزها ، وضمَّ بعضها إلىٰ بعض .

(٤) **الجَفْنُ** : غِمْدُ السيف ؛ أي : بيته .

(٥) **الغَرْزُ** : ركابٌ من جلد يضع الرَّجل رجله فيه ، ثم يمتطي دابته .

(٦) قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدُّور ، فيجدون البيت=

فما لبثوا أن ملكوا الدُّنيا ، وامتلكوا ناصية أممٍ بعيدة الشأو في المدنيَّة ، انقلب رِعاءُ الشاة ، والإبل رُعاةً لأرقىٰ طوائف البشر في العلم ، والمدنية ، والنِّظام ، وصار هٰؤلاء أساتذتهم في العلوم ، والآداب ، والأخلاق ، والتهذيب ، وحقَّت كلمة ٱلله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

اللُّغز الذي أدهش المؤرِّخين :

هٰذه القوَّة القاهرة بعد ذٰلك الضَّعف المخزي ، وهٰذا النشاط الغريب بعد ذٰلك الخمود العجيب ، وهٰذا الانتباه السريع بعد ذٰلك السُّبات العميق لغزٌ من ألغاز التاريخ ، وقد اتَّفقت كلمة المؤرِّخين علىٰ أنَّ هٰذا الحادث أغرب ما وقع في التاريخ الإنسانيِّ ، وإليك بعض ما قال المؤرِّخون الأوربيُّون :

قول المؤرخ : « جبون » :

يقول المؤرخ « جبون » : « بقوَّةٍ واحدةٍ ، ونجاحٍ واحدٍ ، زحف العرب علىٰ خلفاء أغسطس (في الرُّوم)

= ملآناً إلىٰ أعلاه من أواني الذهب ، والفضة ، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً ، فيحسبونه ملحاً ، وربما استعمله بعضهم في العجين ، فوجدوه مرّاً ؛ حتىٰ تبيَّنوا أمره . (البداية والنهاية ج٧ ص٦٧) .

واصطخر (في فارس) وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعةٍ واحدةٍ فريسةً لعدوٍّ لم يزل موضع الازدراء ، والاحتقار منهما ، في عشر سنوات من أيام حكم عمر أخضع العربُ لسلطانه ستَّةً وثلاثين ألفاً من المدن ، والقلاع ، خرَّبوا أربعة آلاف كنسيةٍ ، ومعبدٍ للكفَّار ، وأنشؤوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين ، علىٰ رأس قرن من هجرة محمد ﷺ من مكَّة امتدَّ سلطان خلفائه من الهند إلىٰ المحيط الاطلانطيكي ، ورفرف علم الإسلام علىٰ أقطارٍ مختلفةٍ نائيةٍ كفارس ، وسورية ، ومصر ، وإفريقية ، وإسبانيا »[1] .

قول المؤرخ : « ستودارد » :

ويقول « ستودارد الأميركي » في كتابه : حاضر العالم الإسلامي : « كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دُوِّنَ في تاريخ الإنسان ، ظهر الإسلام في أمَّةٍ كانت من قبل ذٰلك العهد متضعضعة الكيان ، وبلادٍ منحطة الشأن ، فلم يمض علىٰ ظهوره عشرة عقود ، حتىٰ انتشر في نصف الأرض ممزقاً ممالك عالية الذرىٰ ، مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمةً كرَّت عليها الحقب ، والأجيال ، ومغيِّراً ما بنفوس

---

(١) انحطاط رومه وسقوطها المجلد الخامس ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ طبع اكسفورد .

الأمم والأقوام ، وبانياً عالماً حديثاً متراصَّ الأركان ، هو عالم الإسلام .

كلَّما زدنا استقصاء باحثين في سرِّ تقدُّم الإسلام ، وتعاليه ؛ زادنا ذٰلك العجب العجاب بهراً ، فارتددنا عنه بأطرافٍ حاسرةٍ ، عرفنا : أنَّ سائر الأديان العظمىٰ إنَّما نشأت ، ثمَّ أنشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقيةً كلَّ صعبٍ ، حتىٰ كان أن قيَّض ٱلله لكلِّ دين منها ما أراده له من ملكٍ ناصرٍ ، وسلطانٍ قاهرٍ انتحل ذٰلك الدين ، ثم أخذ في تأييده ، والذبِّ عنه ، حتىٰ رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه : بطل النصرانية : « قسطنطين » والبوذية : « أسوكا » والمزدية : « قباء كسرو » كلٌّ منهم ملكٌ جبَّار ، أيَّد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوَّة والأيد ، إنَّما ليس الأمر كذٰلك في الإسلام ، الإسلام الذي نشأ في بلادٍ صحراوية ، تجوب فيها شتىٰ القبائل الرَّحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفَّق ، وينتشر ، وتتَّسع رقعته في الأرض مجتازاً أفدح الخطوب ، وأصعب العقبات دون أن يكون من الأمم الأخرىٰ عونٌ يذكر ، ولا أزرٌ مشدود علىٰ شدَّة هـٰذه المكاره ، وقد نُصر الإسلام نصراً مبيناً عجيباً ؛ إذ لم يكد يمضي علىٰ ظهوره أكثر من قرنين ، حتىٰ باتت راية الإسلام خفَّاقةً من « البرانس » حتىٰ « هملايا » ، ومن صحارىٰ أواسط

آسيا حتىٰ صحارىٰ أواسط إفريقية »[1] .

قول المؤرخ : « فيشر » :

ويقول مؤرخٌ عصريٌّ : « هـ . ا . ل . فيشر » في كتابه تاريخ أوربا : « لم يكن هنالك ـ في جزيرة العرب قبل الإسلام ـ أثرٌ لحكومةٍ عربيَّة ، أو جيشٌ منتظم ، أو لطموحٍ سياسيٍّ عامٍّ ، كان العرب شعراء خياليين ، محاربين ، وتجاراً ، لم يكونوا سياسيين ، إنَّهم لم يجدوا في دينهم قوَّةً تثبتهم ، أو توحِّدهم ، إنَّهم كانوا علىٰ نظامٍ منحطٍّ من الشِّرك ، بعد مئة سنةٍ حمل هـٰؤلاء المتوحِّشون الخَاملون لأنفسهم قوةً عالميَّةً عظيمةً ، إنَّهم فتحوا سورية ، ومصر ، ودوَّخوا ، وقلبوا فارس ، ملكوا تركستان الغربية ، وجزءاً من بنجاب ، إنَّهم انتزعوا أفريقية من البيزنطيين ، والبربر ، وإسبانيا من القوط ، هدَّدوا فرنسا في الغرب ، والقسطنطينية في الشرق ، مخرت أساطيلُهم المصنوعة في الاسكندرية وموانئ سوريا مياه البحر المتوسط ، واكتسحت الجزائر اليونانية وتحدَّت القوة البحرية للإمبراطورية البيزنطية ، لم يقاومهم إلا الفرس ، وبربر جبال الأطلس ، إنَّهم شقُّوا طريقهم بسهولةٍ حتىٰ صعب

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ج١ تعريب الأستاذ عجاج نويهض مقدمة في نشوء الإسلام .

في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقفٌ ، ويعرقل سيرهم في الفتح ، والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضاً عثمانياً لا سيطرة فيه لغير الترك ، وَوُجِدت الدُّول النَّصرانية من أقصىٰ أوروبا إلىٰ أقصاها منذرةً مهدَّدةً بحضارةٍ شرقية مبنيةٍ علىٰ دينٍ شرقي » [1] .

ويقول مؤلف شيوعي :

« إنَّ الإنسان ليدهش إذا تأمل السُّرعة الغريبة التي تغلَّب بها طوائف صغيرة من الرَّحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية علىٰ أقوىٰ دولتين في الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنةً علىٰ بعثة محمد ﷺ حتىٰ غرز أتباعُه علمَ الفتح علىٰ حدود الهند في جانبٍ ، وعلىٰ ساحل البحر الاطلانطيكي في جانبٍ آخر . إنَّ خلفاء دمشق الأولين حكموا علىٰ إمبراطورية ، لم تكن لِتُقطع في أقلَّ من خمسة أشهر علىٰ أسرع جمل ، وحتىٰ نهاية القرن الأول للهجرة كان الخلفاء أقوىٰ ملوك العالم .

كلُّ نبيٍّ جاء بمعجزات آيةً لما يقول ، وبرهاناً علىٰ

---

(١) H.L.FISHER: 'A.HISTORY OF EUROPE' P.P. 137-138.

صدقه ، ولـٰكن محمداً ﷺ هو أعظم الأنبياء ، وأجلُّهم ؛ إذ كان انتشار الإسلام أكبر آيات الأنبياء ، وأروعها إعجاباً ، وخرقاً للعادة . إنَّ إمبراطورية « أغسطس » الرُّومية بعدما وسَّعها بطلها « تراجان » نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ، ولـٰكنَّها لا تساوي المملكة العربية التي أُسِّست في أقلِّ من قرن . إنَّ إمبراطورية الإسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة . إنَّ الإمبراطورية الفارسية قاومت الرُّوم زهاء ألف سنة ، ولـٰكنَّها غُلبت ، وسقطت أمام « سيف ٱلله » في أقلِّ من عشر سنوات [1] .

نظرة تحليلية في هـٰذا اللغز :

والآن ننظر في هـٰذا الحادث الغريب نظراً علميّاً تحليليّاً ، ونبحث عن أسبابه الحقيقية : الجنود ، والدول في هـٰذا العالم الماديِّ تغلب الجنود ، والدول في الغالب بوفرة عددها ، أو بزيادة عدَّتها ، وعتادها ، ولأنَّها أحسن في الشكة والسِّلاح ، وفي التنظيمات العسكرية ، وفائقةٌ في النظام الحربي ، فنتناول جميع هـٰذه العلل المادية التي يرجع إليها الفضل في انتصار الجيوش ، والدول عامة ، ونبحث فيها علَّةً علَّةً .

---

(١) M.N.ROY :'HISTIRCAL OF ROLEISLAM' P.P.4,5,9, 7.

مسألة العدد :

أمَّا العدد ؛ فمعلوم : أنَّه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين في جميع المواقف الحاسمة ، والمعارك الفاصلة في كفاح الإسلام ، والنَّصرانية ، والمجوسية ، وكان الرُّوم ، والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع : هـٰذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم مئة ألف وثمانين ألفاً ، وفي رواية : مئتي ألف ، وفي رواية : أربعين ومئتي ألف ، وأقلُّ ما روي عن عددهم عشرون ومئة ألف ، وأكثر ما ذكر عن المسلمين : أنهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً . كذٰلك كانت النسبة بعيدةً في وقعة القادسية ، وهي أختُها في العراق ، والنتيجة معلومة ! « وما يومُ حليمةَ بِسِرٍّ »[1] .

وقد اعترف بقلَّة المسلمين ، ووفرة جنود الرُّوم ، والفرس المؤرِّخون جميعاً ، ولم يعلِّلوا الفتح الإسلامي الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتلة المسلمين . جاء في الفصل الرابع للأستاذين « غودفروا دمونبين » و« بلانونوف » :

« إنَّ العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم

---

(١) **يوم حليمة** : هو يوم من أشهر أيام العرب في الجاهلية ، وهـٰذا المثل يضرب في كلِّ أمرٍ مشهورٍ ، وللشريف النابهِ الذِّكْرِ .

يكونوا عصائب لا تُحصىٰ ، ولا تُعَدُّ ، تدفَّقت علىٰ الشرق المتمدِّن ، فقد أحصىٰ مؤرخو العرب الجيش الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل إليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تتامَّ عددهم ٣٤ ألفاً ، وأما عدد الروم فقال العرب : إنَّه كان مئة ألف ، وقيل ١٣٠ ألفاً ، وقيل ٢٠٠ ألف مقاتل ، ولم يزده مؤرِّخو بيزنطية علىٰ ٤٠ ألفاً . وعلىٰ كلِّ حالٍ كان العدد الأكبر لأعداء العرب ، وهٰكذا في حروب فارس [١] .

ومعلومٌ : أنَّ جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلىٰ مساحتها ، واتِّساع رقعتها ، ومعظمها صحراء ، ورمالٌ وعثاء ، وأرضٌ قاحلةٌ جرداء ، أما البلاد التي زحف عليها المسلمون ، ورموا فيها بأنفسهم ؛ فهي من أخصب بلاد ٱللهِ مستبحرةً بالعمران ، مكتظَّةً بالسكان ، وكانت خليتها تَغْسِلُ حيناً بعد حينٍ ، وتقطع بعوثاً إثر بعوث ، وتتدفَّق سيولٌ من الجيوش ، والمقاتلة ، وتأتيهم الميرة من أمكنةٍ لا تكاد تنتهي ، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورة في بحار من الأعداء ، نازحين عن بلادهم ، منقطعين عن مركزهم ، ولا يصلهم المدد إلا بشقِّ الأنفس ، وبعد شهور ! ولا يجدون

---

(١) حاضر العالم الإسلامي حواشي الأمير شكيب أرسلان (ج١ ص٣٩) .

من الميرة إلا ما يتغلَّبون عليه ، وينتزعون من أيدي أعدائهم انتزاعاً ، فلو تطوَّعت جزيرة العرب كلُّها لقتال الروم ، والفرس ، ونفر جميع أهاليها للجهاد في سبيل ٱلله ـ علىٰ أنَّ ذٰلك من المستحيل ـ لما وقعوا من العالم النصرانيِّ ، والمجوسيِّ ـ وهما أكثر من نصف الأرض المعمورة ـ بمكانٍ ، فكيف والذين تطوَّعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة ؟ !

مسألة العتاد والسلاح :

أمَّا العدد ، والعتاد ؛ فكان العرب أفقر فيها ، وأقلَّ منهم في العدد ، فلم تكن هناك جنودٌ مرتزقةٌ ، ولا جيوشٌ منظَّمةٌ تعبئها الحكومة ، وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح ، تامَّة الجهاز ، إنَّما كان متطوِّعون ، يجهزون أنفسهم ، وينفرون شوقاً إلىٰ الجهاد في سبيل ٱلله ، ورجاء ثوابه ، ومنهم من لا يجد راحلةً ، ويلتمس عند غيره ، فلا يجد ، فيقعد متلهِّفاً علىٰ ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل ٱلله ، وقد أنزل ٱلله فيهم : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩٢] .

وكان المسلمون تزدريهم أعينُ الروم ، والفرس لمَّا خرجوا لقتالهم ، وكانوا يسخرون من سلاحهم ، ونبالهم ،

وثيابهم ، ويضحكون . قال أبو وائل ـ أحد الذين شهدوا القادسيَّة ـ :

كان الفرس يقولون للمسلمين : « لا يَدَ لكم ، ولا قوَّة ، ولا سلاح ، ما جاء بكم ؟ ! ارجعوا ! قال : قلنا ما نحن براجعين ! فكانوا يضحكون من نبلنا ، ويقولون : دوك دوك ! ويشبهونها بالمغازل [١] .

قال ابن كثير : « وكان سعد قد بعث طائفةً من أصحابه إلىٰ كسرىٰ يدعونه إلىٰ ٱلله قبل الوقعة ، فاستأذنوا علىٰ كسرىٰ ، فأذن لهم ، خرج أهل البلد ينظرون إلىٰ أشكالهم ، وأرديتهم علىٰ عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنِّعال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة ، وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجَّبون منها غاية العجب ، كيف مثل هـٰؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعُددها ؟ ! » [٢] .

ويقول « ماكس مايرهوف » في تأليفه : « العالم الإسلامي » :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف : أنَّ أعراباً منتمين

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص٤٠) .

(٢) أيضاً (ج٧ ص٤١) .

إلىٰ عشائر ، ليست عندهم العُدد ، والأعتدة اللاَّزمة يهزمون في مثل هـٰذا الوقت القصير جيوش الرومان ، والفرس ، الذين كـانـوا يفـوقـونهـم مـراراً فـي الأعـداد ، والعتـاد ، وكـانـوا يقاتلونهم ؛ وهم كتائب منظمة »[1] .

مسألة تفوُّق العرب في النِّظام الحربي :

وممَّا قيل في تعليل غلبة المسلمين : أن العرب كانوا فائقين في نظامهم الحربي علىٰ الروم ، والفرس في ذٰلك العصر ، وكانت كتائبهم أحسن تنظيماً ، وتدريباً ، وأفضل نظاماً عسكرياً ، وأكثر انقياداً لأمرائها ، وقوَّادها من العساكر الرُّومية ، والفارسيَّة ، وأنَّ الفضل في انتصار العرب مع قلَّتهم ، وانكسار الروم ، والفرس رغم كثرتهم يرجع إلىٰ مراس العرب للقتال ، وضراوتهم بالحروب ، وولوعهم بالغزو ، والنَّهب ، ونشأتهم الجاهلية الأولىٰ النشأة الحربية المحضة .

هـٰذا الكلام يشبه أن يكون وجيهاً ، وأكثر صواباً من التعليلات السابقة .

ولـٰكنَّك إذا انتقدته كباحثٍ ومؤرِّخٍ ؛ وجدته مغالطةً كبيرةً

---

(١) حاضر العالم الإسلامي حواشي الأمير شكيب أرسلان (ج١ ص٣٩) .

يغـالـط بهـا الكتَّـاب ، والأوربيُّـون ، ويتعلَّلـون بهـا ، وقـد يفهمون ، وقد لا يفهمون !

وقد ثبت في تواريخ القرون الوسطىٰ : أنَّ الروم ـ وكذا الفرس ـ كانوا راقين في نظامهم الحربيِّ في ذٰلك العصر ، وقد بلغت الدولة البيزنطية في بداية القرن السابع المسيحي زُهُوَّها ، وأوج فتوحاتها الحربيَّة ، ففي ذٰلك العهد دحر الروم الفرس ، وردُّوهم علىٰ أعقابهم ، وجاسوا خلال الديار ، وعبر هرقل جبال الكرد ، ونهر دجلة غازياً منتصراً ، وبعد حربٍ داميةٍ في ساباط ومعركةٍ فاصلةٍ في نينوىٰ دخل دستجرد ، وتقدَّم إلىٰ المدائن ، وغرز علم الفتح الرومي في قلب فارس ، وذٰلك كلُّه في سنة ٦٢٥ ، يعني : قبل زحف المسلمين علىٰ الشام باثني عشرة سنة فقط .

وقد أفادت هٰذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ م الفريقين ـ الرُّوم ، وفارس ـ من جهة الحرب والتدريب كثيراً ، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال ، وحنكةً ، وحسن بلاءٍ في الحرب ، وتعلَّم كلُّ فريقٍ من الآخر ما كان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطىٰ .

وقد اعترف « جبون » مؤرخ رومة الكبير بفضل الرُّوم علىٰ العرب في الحروب ، ونظامها ، فقد قال في كتابه (المجلد الخامس ص٤٧٨) :

أنا ألاحظ هنا ، وسأكرِّره مراراً : أنَّ هجوم العرب ، وقتالهم لم يكن مثل الرومان ، واليونان ؛ الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة ، كانت القوة العسكرية للعرب مركَّبةً من فرسان ، ورماة ، وكانت الحرب التي قد تُقاطعها مبارزاتٌ شخصيَّةٌ ، ومناوشات من القتال ، قد تستمرُّ وتطول بغير حادثةٍ فاصلة إلىٰ عدَّة أيام .

أما ما قيل عن مراس العرب للقتال ، وتدريبهم عليه ، بفضل حروبهم القبلية التي كادت تكون مستمرةً ، وتمكُّنهم من الانتصار علىٰ الروم ، والفرس ؛ فلم تكن هـٰذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكَّن بها العرب من قهر الإمبراطورتين الكبيرتين الرومية ، والفارسية ، وقد خضع العرب مع هـٰذا كلِّه للحبشة ولفارسٍ في جنوب العرب ، وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه علىٰ مكَّة ، وإن ٱلله هو الذي تولَّىٰ بيته ، وكفىٰ قريشاً القتال ، وجعل أصحابَ الفيل كعصفٍ مأكول ، ولماذا لم يجسر العرب علىٰ الخروج من جزيرتهم ، وغزو البلاد ، وفتحها في هـٰذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهم في خمودٍ ، وخمولٍ تامٍّ ؟ ! لماذا لم يهاجموا الروم ، والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد ﷺ بغير تراخٍ ؟ ولماذا لبثوا الأحقاب ، والأجيال الطِّوال « معكوفين علىٰ رأس حجرٍ بين الأسدين : فارس ، والروم ؟ ! » كما

يقول قتادة أحدُ التابعين الكبار [1] .

أما ما قيل عن النظام ؛ فلا ننكر حسن نظام العرب في حروبهم ، وغزواتهم ، وروح التعاون ، والتفادي الساري في جنودهم ، والطاعة ، والانقياد لأمراء الجيوش ، وقوَّادها ، والتفاني ، والاستماتة في سبيل ٱلله ، ولـٰكن يعلم الخبراء : أنَّ النظام ليس شيئاً صناعياً ميكانيكياً ، يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية ، وفنون حربية ، وقواعد رياضية ، ولو صُفِّفت الحجارة تصفيفاً بديعاً ، أو أقيمت العمد ، والسواري علىٰ نظامٍ فنِّيٍّ رياضيٍّ كاملٍ ؛ لم تنفع شيئاً ، وقد قرأت في التاريخ : أن الروم والفرس قد كانوا في بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم ، ويحفرون لهم في الأرض لئلا يندحروا ؛ أو ينسحبوا من ميدان القتال ، ثم لا يغني عنهم هـٰذا شيئاً ، فليس الشأن كلُّه في النظام في الحرب ، إنَّما الشأن الكبير ، والتأثير البليغ للرُّوح ، والمبدأ ، والغاية التي يقاتل لأجلها الجنود ، وتَمَكُّنها من النفوس ، وهي منبع القوَّة الخارقة للعادة ، ومبعث الشجاعة التي تبهر العقول ، وسبب الفتوح العظيمة التي يندهش لها المؤرخون ، والفلاسفة .

---

(١) تفسير ابن جرير (٤ ص٣٣) ومعكوفين : مشدودين .

منبع القوَّة الحقيقيُّ عند العرب المسلمين :

عن هٰذا المنبع نبحث في نفوس العرب الأوَّلين الذين خرجوا لفتح العالم ، وفتحوا نصف الأرض في نصف قرن .

منبع هٰذه القوَّة ، وسبب هٰذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيلٌ في التاريخ : أنَّ العرب أصبحوا بفضل تعاليم محمد ﷺ أصحاب دينٍ ، ورسالةٍ ، فبُعِثوا بعثاً جديداً ، وخُلِقوا من جديد ، وانقلبوا في داخل أنفسهم ، فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ما كانوا ، نظروا إلىٰ العالم حولهم ـ وطالما رأوه في جاهليتهم بدهشةٍ واستغراب ـ فإذا الفساد ضاربٌ أطنابه ، وإذا الظلم مادٌّ رواقه ، وإذا الظلام مخيِّمٌ علىٰ العالم كلِّه ، وكلُّ شيءٍ في غير محلِّه ، فمقتوه ، وأبغضوه ، ونظروا إلىٰ الأمم ، وطوائف البشر حول جزيرتهم ـ وطالما رأوها بتعظيم ، وإجلالٍ ، وغبطةٍ ، وإكبار ـ فإذا هم أنعامٌ ودوابٌّ في صورة البشر : ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد : ١٢] وإذا صورٌ ، ودمىً قد كُسيت ملابس الإنسان ، فاستهانوا بهم ، وبما هم فيه من ترفٍ ، ونعيمٍ ، وزخارف ، وزينةٍ ، وقرؤوا قول الله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه : ١٣١] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ

أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة : ٥٥] .

وعلموا : أنَّ ٱلله قد ابتعثهم ؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلىٰ النور ، ومن عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، وأورثهم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضاً لم يطؤوها ، واستخلفهم في الأرض ومكَّنهم فيها ، وقرؤوا قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، وقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ ﴾ [النور : ٥٥] وتعلَّقوا بقول نبيهم ﷺ :

« إنَّ ٱلله زوىٰ [1] لي الأرض ، فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإنَّ أُمَّتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر ، والأبيض » [2] .

وقوله : « إذا هلك كسرىٰ ؛ فلا كسرىٰ بعده ، وإذا هلك

---

(١) زوىٰ لي الأرض : جمعها ، وقبضها .

(٢) رواه الترمذي ، كتاب الفتن (٢١٧٧) .

قيصر ؛ فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده ؛ لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل ٱلله ! »[1] .

وعرفوا : أنَّ ٱلله قد ضمن لهم النَّصر ، ووعدهم بالفتح ، فوثقوا بنصر ٱلله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلَّة والكثرة ، واستخفُّوا بالمخاوف والأخطار ، وذكروا قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وقوله : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

تفطُّن عقلاء النَّاس لِسِرِّ قوَّة العرب

قول هرقل في هـٰذا الأمر : وقد فطن بهـٰذه الحقيقة بعض معاصري المسلمين وأعدائهم ، وأهل النظر والتمييز في ذٰلك العصر من الروم ، والفرس ، فمن ذٰلك ما روىٰ ابن كثير : أنَّ هرقل لما انتهىٰ إليه خبر زحف المسلمين ؛ قال لأهل الشام :

« ويحكم ! إنَّ هـٰؤلاء أهل دين جديد ، وأنَّهم لا قِبَلَ لأحدٍ بهم ، فأطيعوني ، وصالحوهم بما تصالحونهم علىٰ نصف خراج الشَّام ، ويبقىٰ لكم جبال الرُّوم ، وإن أنتم أبيتم

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب الفتن (٢٢١٧) .

ذٰلك ؛ أخذوا منكم الشام ، وضيَّقوا عليكم جبال الرُّوم »[1] .

أمَّا عقيدة المسلمين : أنّهم مبعوثون إلىٰ الأمم ، موكَّلون بإخراج الناس إلىٰ عبادة ٱلله وحده ، وأنَّ ٱلله متولِّي نصرهم ، وضامنٌ بظفرهم ؛ فستلمحه ، وتلمسه في كلِّ ما كان يصدر من المسلمين من كلامٍ ، وفعالٍ ، ومن ثقتهم ، وسكينة قلوبهم .

قول أبي بكر ، وعمر ، رضي ٱلله عنهما : ومن ذٰلك ما رُويَ : أن الأمراء في اليرموك لمَّا كتبوا إلىٰ أبي بكرٍ ، وعمر ، يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلونه من خطرٍ داهمٍ ، وعددٍ لا قِبَلَ لهم به ؛ كتبا إليهم : أن اجتمعوا ، وكونوا جنداً واحداً ، والقَوْا جنود المشركين ، فأنتم أنصار ٱلله ، وٱلله ناصرٌ مَنْ نصره ، وخاذلٌ من كفره ، ولن يؤتىٰ مثلُكم عن قلَّةٍ ، ولٰكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها[2] .

قول عليٍّ ، رضي ٱلله عنه : ولمَّا استشار عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ أصحابه في مسيره إلىٰ العراق بوقعة نهاوند ؛ قال له عليُّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « يا أمير المؤمنين ! إنَّ هٰذا الأمر لم يكن نصره ، ولا خذلانه بكثرةٍ ، ولا قلَّةٍ ، وهو

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص٥) .

(٢) البداية والنهاية (٧ ص٥) .

دينه الذي أظهر ، وجنده الذي أعزَّه ، وأمدَّه بالملائكة ؛ حتىٰ بلغ ما بلغ ، فنحن علىٰ موعودٍ من ٱلله ، وٱلله منجزٌ وعده ، وناصرٌ جنده »[1] .

قول سعدٍ ، وسلمانَ ، رضي ٱلله عنهما : ولذٰلك كانوا يخاطرون بأنفسهم ، ويأتون بأعاجيبَ ، وأعمالٍ خارقةٍ للعادة ثقةً بنصر ٱلله ، واعتماداً علىٰ موعوده ؛ حتىٰ إنَّهم خاضوا بخيولهم في دجلة ، وكانوا يتحدَّثون مطمئنين كأنهم سائرون علىٰ البر ، وكان منظراً غريباً ، وجعل الفرسُ يقولون : « ديوان آمدند » ـ يعنون : الجن ، والعفاريت ـ ويقولون : « ديوانه » يعنون : المجانين ، وكان الذي يساير سعدَ بنَ أبي وقاصٍ في الماء سلمانُ الفارسيُّ ، فجعل سعد يقول : حسبنا ٱلله ، ونعم الوكيل ! وٱلله لينصرنَّ ٱلله وليَّه ، وليظهرن ٱلله دينه ، وليهزمنَّ ٱلله عدوه ؛ إن لم يكن في الجيش بغيٌ ، أو ذنوبٌ تغلب الحسنات ! فقال له سلمان : « إنَّ الإسلام جديد ، ذُلِّلَتْ لهم ـ وٱلله ـ البحور كما ذُلِّلَ لهم البَرُّ ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرُجُنَّ منه أفواجاً ، كما دخلوا أفواجاً ! فخرجوا منه كما قال سلمان : لم يغرق منهم أحدٌ ،

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص١٠٧) .

ولم يفقدوا شيئاً »[1] .

قول عبد ٱلله بن رواحة ، رضي ٱلله عنه : بعثت هٰذه العقيدة ، والنفسية طمأنينةً في أنفسهم ، وسكينةً في قلوبهم ، وشجاعةً خارقةً للعادة ، واستهانةً بالعدد ، والعُدد ، وعدم عبادةٍ للمادَّة ، وعدم اتِّخاذ الأسباب أرباباً ، وعرفوا : أنَّهم يقاتلون بقوَّة الدِّين ، ويظفرون ، ويغلبون ببركة الإسلام ، فكانوا شديدي الاحتفاظ ، كثيري الاعتداد بها ، يتمثَّل ذٰلك فيما قال عبد ٱلله بن رواحة ، رضي ٱلله عنه . روىٰ يونس عن ابن إسحاق : أن المسلمين بلغهم : أنَّ هرقل نزل بمآب في مئة ألفٍ من الرُّوم ومئة ألفٍ من المستعربة[2] ـ والمسلمون لا يزيدون علىٰ ثلاثة آلاف ـ فلمَّا بلغ ذٰلك المسلمين ؛ أقاموا علىٰ « معان » ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلىٰ رسول ٱلله ﷺ نخبره بعدد عدوِّنا ، فإما أن يمدَّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضي له ، قال : فشجع الناس عبد ٱلله بن رواحة ، وقال :

يا قوم ! وٱلله إنَّ التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعددٍ ، ولا قوَّةٍ ، ولا كثرةٍ ،

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص٦٥) .

(٢) **المستعربة** : العرب التي اعتنقت النصرانية .

ما نقاتلهم إلا بهـٰذا الدِّين الذي أكرمنا ٱلله به ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدىٰ الحسنيين ، إمَّا ظهور ، وإمَّا شهادة ! قال الناس : قد وٱلله صدق ابن رواحة ! فمضىٰ النَّاس [1] .

قول أبي عبيدة ، رضي ٱلله عنه : كانوا واثقين بما وعدهم به رسولُهم ﷺ عن الفتوح العظيمة ، فإذا رأوا من ذٰلك شيئاً ؛ قالوا : ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

جاء رجلٌ إلىٰ أبي عبيدة يوم اليرموك ، فقال : « إنِّي قد تهيَّأت لأمري ، فهل لك من حاجةٍ إلىٰ رسول ٱلله ﷺ ؟ قال : نعم تقرئه عنِّي السلام ، وتقول : يا رسول ٱلله ! إنَّا وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً ! » [2] .

قول خالد ، رضي ٱلله عنه : وقد بلغوا في قلَّة الاهتمام بالعدد ، والاستخفاف بشأن العدوِّ ، وكثرته ؛ حتَّىٰ كأنهم من حديدٍ ، والعدوُّ من طينٍ ، وخزف ، أو كأنهم مناجل ، والعلوج [3] حقولٌ ، ومزارع ، قد أينعت ، وحان حصادها .

---

(١) البداية والنهاية (ج٤ ص٢٤٣) .

(٢) البداية والنهاية (ج٧ ص١٢) .

(٣) **العلج** : الرجل الضخم القوي من كفار العجم ، وقد يطلق علىٰ الكافر عموماً .

قال المؤرخون : لمَّا أقبل خالدٌ من العراق ؛ قال رجلٌ من نصارىٰ العرب لخالد بن الوليد ، ما أكثر الرُّوم ، وأقلَّ المسلمين ! فقال خالد :

ويلك ! أتخوِّفني بالروم ؟ ! إنَّما تكثر الجنود بالنَّصر ، وتقلُّ بالخذلان لا بعدد الرجال ، واللهِ لوددت : أن الأشقر [١] براء من توجِّيه [٢] ، وأنَّهم أضعفوا في العدد ! وكان فرسه قد حَفِيَ ، واشتكىٰ في مجيئه من العراق [٣] .

ربعي بن عامر في مجلس يزدجرد : وقد ارتفع هـٰؤلاء ، وعلَتْ هممُهم ، وكبُرت نفوسُهم ، وعظُم الدِّين ، والحقيقة ، والأخلاق في نظرهم ؛ حتىٰ صغُرت الدنيا وزخارفها في عيونهم ، وهان أهلها عليهم ، فكانوا ينظرون إلىٰ أبهة الملوك ، وفخفخة السلاطين ، وما فيه أغنياء هاتين المدنيتين ومترفوها من الأثاث والرياش ، وزخارف الدنيا كأنهم ينظرون إلىٰ لعب الصبيان ، وكأنهم يرون الدُّمىٰ ،

---

(١) **الأشقر** : فرس خالد ، كان قد رقَّت قدمه في مسيره من العراق إلىٰ الشام .

(٢) **توجِّيه** : وَجِيَ الفرس ، وتوجَّىٰ : أصيب بالوجَىٰ ، وهو : أن يشتكي الفرس باطن حافره .

(٣) البداية والنهاية (ج٧ ص٩) .

والبنات المصنوعة من ورقٍ أو قماش ، ومواكبها وزينتها لا يهولهم شيءٌ ، ولا يعظم في عينهم شيء .

أرسل سعدٌ قبل القادسية ربعيَّ بن عامر رسولاً إلىٰ رستم ـ قائد الجيوش الفارسية ، وأميرهم ـ فدخل عليه ؛ وقد زيَّنوا مجلسه بالنمارق [1] المذهَّبة ، والزرابيِّ [2] ، وأظهر اليواقيتَ ، واللآلئ الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذٰلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس علىٰ سريرٍ من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيفٍ ، وترسٍ ، وفرسٍ قصيرةٍ ، ولم يزل راكبها ؛ حتىٰ داس بها علىٰ طرف البساط ، ثمَّ نزل ، وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل ؛ وعليه سلاحه ، ودرعه ، وبيضتُه علىٰ رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ! فقال : إني لم آتكم ، وإنَّما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هٰكذا ؛ وإلا رجعت ! فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ علىٰ رمحه فوق النمارق ، فخرق عامَّتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال :

ٱلله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله ،

---

(١) النَّمارق : جمع نمرقة بضم النون والرَّاء وبكسرهما ، وهي الوسادة .

(٢) الزرابيُّ : جمع زُرْبية بضم الزاي ، وكسرها ، وفتحها ، وهي : الطنفسة ؛ أي : السجادة .

ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوَهم إليه ، فمن قَبِل ذٰلك ؛ قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبىٰ ؛ قاتلناه أبداً ؛ حتىٰ نفضيَ إلىٰ موعود ٱلله ! قالوا : وما موعود ٱلله ؟ قال : الجنَّة لمن مات علىٰ قتال من أبىٰ ، والظَّفر لمن بقي .

فقال رستم : قد سمعتُ مقالتكم ، فهل لكم أن تؤخِّروا هٰذا الأمر حتىٰ ننظر فيه ، وتنظروا ؟ قال نعم كم أَحَبُّ إليكم : يوماً ، أو يومين ؟ قال : لا ، بل حتىٰ نكاتب أهل رأينا ، ورؤساء قومنا . فقال : ما سنَّ لنا رسول ٱلله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللِّقاء أكثر من ثلاثٍ ، فانظر في أمرك ، وأمرهم ، واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل ، فقال : أسيِّدهم أنت ؟ قال : لا ، ولٰكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم علىٰ أعلاهم ! فاجتمع رستم برؤساء قومه ، فقال :

هل رأيتم قطُّ أعزَّ ، وأرجح من كلام هٰذا الرَّجل ؟ فقالوا : معاذ ٱلله أن تميل إلىٰ شيءٍ من هٰذا ، وتدع دينك إلىٰ هٰذا الكلب ! أما ترىٰ إلىٰ ثيابه ؟ فقال : ويلكم لا تنظروا إلىٰ الثياب ، وانظروا إلىٰ الرأي ، والكلام ، والسيرة ! إنَّ العرب يستخفُّون بالثياب ، والمأكل ، ويصونون الأحساب [1] .

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص٣٩ ـ ٤٠) .

المغيرة بن شعبة يجلس علىٰ سرير رستم : دخل المغيرة بن شعبة علىٰ رستم ، وقعد معه علىٰ السرير ، فنخروا ، وصاحوا ! فقال : إنَّ هـٰذا لم يزدني رفعةً ، ولم ينقص صاحبكم ، فقال رستم : صدق [1] !

أخلاق الصحابة وسيرتهم التي انتصروا بها : وكان من أكبر أنصار المسلمين أخلاقُهم العالية ، وسيرتُهم الملائكيَّة ، فكانوا يمتازون بها ، ويعرفون بها أينما رحلوا ، ونزلوا ، وكانت هـٰذه الأخلاق طليعة جيوشهم ، تسخِّر لهم القلوب ، والنفوس ، وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ، ورماحهم ، ونبالهم ، والذين كانوا يشهدونها ، ويجرِّبونها كانوا يشهدون : أنَّ هـٰؤلاء سيغلبون ، ويملكون الدنيا ، وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كالفرق بين البهائم ، والملائكة .

روىٰ أحمد بن مروان المالكيُّ في « المجالسة » بسنده عن أبي إسحاق ؛ قال :

كان أصحاب رسول ٱلله ﷺ لا يثبت لهم العدوُّ فَواق ناقةٍ [2] عند اللقاء ، فقال هرقل ؛ وهو علىٰ أنطاكية لمَّا قدمت

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص٤٠) .

(٢) **فواق ناقة** : مدَّة حَلْبِها .

منهزمة الرُّوم : ويلكم ! أخبروني عن هٰؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فأنتم أكثر ، أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كلِّ موطن . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل : أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم ! ومن أجل أنّا نشرب الخمر ، ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ، ونظلم ، ونأمر بالسُّخْط ، وننهىٰ عمَّا يرضي ٱلله ، ونفسد في الأرض ! فقال : أنت صدقتني [1] .

وسأل هرقلُ هٰذا رجلاً كان قد أُسِرَ مع المسلمين ، فقال : أخبرني عن هٰؤلاء القوم ، فقال : أخبرك كأنك تنظر إليهم ! هم فرسان بالنَّهار ، ورهبانٌ بالليل ، لا يأكلون في ذمَّتهم إلا بثمنٍ ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون علىٰ مَنْ حاربوا ؛ حتىٰ يأتوا عليه ! فقال : لئن كنت صدقتني ؛ لَيَمْلِكُنَّ موضع قدمي هاتين .

ووصف رجلٌ من الرُّوم المسلمين لرجلٍ من أمراء الروم ، فقال :

---

(١) البداية والنهاية (ج٧ ص١٥) .

جئتك من عند رجالٍ دقاق ، يركبون خيولاً عتاقاً ، أمَّا الليل ؛ فرهبانٌ ، وأمَّا النَّهار ؛ ففرسانٌ ، يريشون النَّبل ويبرونها [(١)] ، ويثقِّفون القنا [(٢)] ، لو حدثت جليسك حديثاً ؛ ما فهمه عنك لِمَا علا من أصواتهم بالقرآن ، والذكر ! قال : فالتفت إلىٰ أصحابه ، وقال : أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به [(٣)] !

حبَّبتهم هـٰذه الأخلاق إلىٰ أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم ، حتىٰ إن كان هـٰؤلاء ليؤثرنَّهم علىٰ بني جلدتهم ، وأبناء ملَّتهم ، ويتمنَّون لهم الظفر ، ويدفعون عنهم العدو ويتطوَّعون لمصالحهم .

قال البلاذري في فتوح البلدان : حدَّثني أبو حفص الدمشقي ؛ قال : حدَّثنا سعيد بن عبد العزيز ؛ قال : بلغني : أنَّه لمَّا جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ؛ ردُّوا علىٰ أهل حمصَ ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شُغلنا عن نُصرتكم ، والدفع عنكم ، فأنتم علىٰ أمركم ! فقال أهل حمص :

---

(١) يعملون لها ريشاً .

(٢) يقوِّمونها .

(٣) البداية والنهاية (ج٧ ص١٦) .

لَوِلاَيَتُكم ، وعدلُكم أحبُّ إلينا ممَّا كنَّا فيه من الظلم ، والغشم ، ولندفعنَّ جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراةِ لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص ، إلا أن نُغلب ، ونجهد ! فأغلقوا الأبواب ، وحرسوها . وكذٰلك فعل أهل المدن التي صُولحت من النَّصارىٰ ، واليهود ، وقالوا : إنْ ظهر الرومُ ، وأتباعُهم علىٰ المسلمين ؛ صرنا إلىٰ ما كنَّا عليه ، وإلا فإنَّا علىٰ أمرنا ما بقي للمسلمين عددٌ ، فلمَّا هزم ٱلله الكفرة ، وأظهر المسلمين ؛ فتحوا مدنهم ، وأخرجوا المقلِّسين [1] فلعبوا ، وأدَّوا الخراج .

ما جرىٰ للمسلمين حين نسوا دينهم :

هٰذا ولمَّا طال علىٰ المسلمين الأمد ، وقست قلوبُهم ، ونسوا ، وتناسوا ما لأجله بعثهم ٱلله علىٰ كثرة من الناس ، وتوافر من أمم الأرض ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

---

(١) قلس القوم : استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدُّفِّ ، والغناء ، وأصناف اللَّهو .

ونسوا ما لأجله خرجوا من جزيرتهم ، يُخرجون الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله وحده ، وصاروا يحكمون الناس حكم النَّاس علىٰ النَّاس ، وصاروا يعيشون حياةً لاهيةً حرَّةً ، حياة من لا يعرف نبياً ، ولا يؤمن برسالةٍ ووحيٍ ، ولا يرجو حساباً ، ولا يخشىٰ معاداً ، وأشبهوا الأمم الجاهليَّة التي خرجوا يقاتلونها بالأمس ، عادوا فقلَّدوها في مدنِيَّتها واجتماعها ، وسياستها ، وأخلاقها ، ومناهج حياتها ، وفي كثيرٍ مما مقتها ٱلله لأجله ، وخذلها ، وأصبحوا لا همَّ لهم ، ولا شغل إلا الأكل ، والشرب ، والتناسل ، وأصبحوا كرعايا الناس ، ليس لهم فرقانٌ ، ولا نورٌ يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكُهم ، وأمراؤهم جبابرتها ، وفراعنتها ، وأغنياؤهم مترفيها ، وأكابر مجرميها ، وكاد يسبق فجَّارُهم فجَّارَها ، تحاسدٌ ، وبغضاءٌ ، ومنافسةٌ في السُّلطان ، وتكالبٌ علىٰ حطام الدنيا ، وإخلادٌ إلىٰ التَّرف ، والنَّعيم ، وإعراضٌ عن الآخرة ، وسفكٌ للدِّماء ، وهتكٌ للأعراض ، وهضمٌ للحقوق ، وغدرٌ بالعهود ، والذِّمم ، وتعدٍّ علىٰ حدود ٱلله ، وإعانةٌ للظالم ، وجَنَفٌ [1] في الحكومات ، والمظالم ، وتبذيرٌ لأموال ٱلله ، وعموم الفواحش ، والمنكرات ، وابتداعٌ

---

(١) **الجنف** : الميل .

للجرائم ، وإبداعٌ في الخيانة ، ممَّا يحتاج بسطه إلىٰ مجلداتٍ ، فهانوا إذاً علىٰ ٱلله مع أسمائهم الإسلاميَّة ، ورغم وجود الصَّالحين فيهم ، وظهور بعض الشَّعائر الدينية ، والواجبات الشَّرعية في بلادهم ، وهانوا علىٰ النَّاس رغم مملكتهم الواسعة ، وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنهم العامرة ، ورغم تقدُّمهم في الحضارة ، ومظاهرها الكثيرة ، فقلَّ إكرام الناس لهم ، وهيبتهم إيَّاهم ، وتجاسروا عليهم . قال « رتبيل » ملك رخج ، وسجستان لرسل يزيد بن عبد الملك ؛ وقد جاؤوا إليه يطالبونه بالخراج : « ما فعل قومٌ كانوا يأتونا : خماصُ البطون ، سودُ الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوصٌ ؟ » . « قالوا : انقرضوا ، قال : « أولـٰئك أوفىٰ منكم عهداً ، وأشدُّ باساً ، وإن كنتم أحسنَ منهم وجوهاً » ، ثم لم يُعْطُوا أحداً من عمال بني أميَّة ، ولا عمَّال أبي مسلم علىٰ سجستان من تلك الأتاوه شيئاً[1] .

فإذا كان هـٰذا في القرن الثاني ؛ فما ظنُّك بقرونٍ بعده ؛ حتىٰ إذا بلغ السَّيْلُ الزُّبىٰ ، وتضاعف كلُّ ما ذكرنا ، وأفسد المسلمون في الأرض بعد إصلاحها ، وآسفوا ٱلله ؛ بعث عليهم عباداً له أولي بأسٍ شديد ، فجاسوا خلال الديار ، سلط

---

(١) فتوح البلدان ص٤٠١ طبع بريل .

عليهم المغول ، والتتار - أشقىٰ الأمم ، وأخملها ، وأجهلها ، وأوحشها - فوضعوا فيهم السيف ، وأجروا من دمائهم سيولاً ، وأنهاراً ، وأقاموا من رؤوسهم صروحاً ، وتلالاً ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وأحلُّوهم الخوف ، فتمكن من قلوبهم الوهن ، والجبن ؛ حتىٰ أصبحوا لا يصدِّقون بهزيمة التتر . قال ابن الأثير : سمع عن بعض أكابرهم : أنه قال : « مَنْ حدَّثك : أنَّ التتر انهزموا ؛ فلا تصدِّقه » . قال : ووقع رعبهم في قلوب الناس ؛ حتَّىٰ كان أحدُهم إذا لقي جماعة يقتلهم واحداً واحداً ؛ وهم دهشون ، ودخلت امرأة من التتر داراً ، وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنُّونها رجلاً ، ودخل واحدٌ منهم درباً فيه مئة رجل ، فما زال يقتلهم واحداً واحداً أفناهم ، ولم يمد أحد يده إليه بسوء ، ووضعت الذلَّة علىٰ الناس ، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ، ولا كثيراً . نعوذ بٱلله من الخذلان ! ! وحكي : أنَّ أحدهم أخذ رجلاً لم يجد ما يقتله به ، فقال له : ضع رأسك علىٰ هٰذا الحجر ، ولا تبرح ! فوضع رأسه ، وبقي إلىٰ أن أتىٰ التتريُّ بسيفٍ ، وقتله . قال ابن الأثير : وأمثال ذٰلك كثيرة .

وإليك ما قال ابن الأثير قبل أن يسرد وقائع هٰذه النَّازلة .

« لقد بَقِيْتُ عدَّة سنين معرضاً عن ذكر هٰذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدِّم إليه رجلاً ، وأؤخر

أخرىٰ ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام ، والمسلمين ؟ ! ومن الذي يهون عليه ذكر ذٰلك ، فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني متُّ قبل هٰذا ، وكنت نسياً منسياً ! هٰذا الفعل يتضمَّن ذكر الحادثة العظمىٰ ، والمصيبة الكبرىٰ التي عقمت الليالي عن مثلها عمَّت الخلائق ، وخصَّت المسلمين ، فلو قال قائل : إنَّ أهل العالم منذ خلق ٱلله تعالىٰ آدم إلىٰ الآن لم يُبتلوا بمثلها ؛ لكان صادقاً ، فإنَّ التواريخ لم تتضمَّن ما يقاربها ، ولا ما يدانيها . . . ولعلَّ الخلق لا يرون مثل هٰذه الحادثة إلىٰ أن ينقرض العالم ، وتفنىٰ الدنيا . . . إلخ » .

ولٰكن مثل هٰذه الحادثة لم تستطع أن تنبِّه المسلمين ، ولم يفيقوا من سكرتهم ، ولم يغيِّروا ما بأنفسهم ؛ حتىٰ يغيِّر ٱلله ما بهم ، وحقَّ عليهم قول ربهم : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] ، وقوله : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٦] ، وما زالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلةٍ ، ولهوٍ ، وظلمٍ . . . حتىٰ يقول ابن الأثير :

« فٱلله تعالىٰ ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده ، فما نرىٰ في ملوك الإسلام من له رغبةٌ في الجهاد ، ولا نصرةٌ

في الدين ، بل كلٌّ منهم مقبل علىٰ لهوه ، ولعبه ، وظلم رعيته ، وهٰذا أخوف عندي من العدوِّ ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وممَّا يجب أن يلاحظ القارئ ، ويعتبر به المعتبر : أنَّ المسلمين في هٰذه الظلماء التي غشيتهم ، والفتنة التي عمَّتهم ، كلَّما أفاقوا من سكرتهم ، وأصلحوا شأنهم ، وأزاحوا العلل ، وصمدوا في وجه العدو ، واستنزلوا النصر ؛ هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ، ولا يصدِّق الناس بانهزامهم ، فقد هزمهم جلال الدين خوارزم شاه ثلاث مرَّات ، وهزمهم الظاهر بيبرس غير ما مرَّة ، وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصُّفَّر ، وقال السيوطي عن وقعة عين جالوت : « فَهُزِمَ التتار شرَّ هزيمةٍ ، وانتصر المسلمون ، ولله الحمد ! وقتل من التتار مقتلةٌ عظيمة ، وولَّوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يخطِفونهم ، وينهبونهم » (١) .

حال المسلمين في القرون الأخيرة :

ولم يزدد المسلمون إلا ضعفاً ، ولم تزدد أخلاقهم علىٰ مرِّ الأيام إلا انحطاطاً ، وتدهوراً ، ولا أحوالُهم ، وشؤونُهم

---

(١) تاريخ الخلفاء .

إلا فساداً ، حتىٰ أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمَّةً جوفاء ، لا روح فيها ، ولا دم ، وصاروا كصرحٍ عظيم من خشب منخورٍ قائم لا يزال يؤوي الناس ، ويهول الناسَ من بعيد ، أو كدوحة قد تآكلت جذورها ، ونُخِر جذعها العظيم ولم تنقطع بعد ، وأصبحت بلادُهم مالاً سائباً ، لا مانع له ، وأصبحت دولُهم فريسةً لكلِّ مفترس ، وطعمةً لكلِّ آكل ، وحقَّ قول النبي ﷺ :

« يوشك الأمم أن تداعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها » . فقال قائل : أو من قلَّةٍ نحن يومئذ يا رسول ٱلله ؟ ! قال : « بل أنتم يومئذٍ كثير ، ولـٰكنَّكم غثاءٌ كغثاء السَّيل ! ولينزعنَّ ٱلله من صدور عدوِّكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهَنُ ! » . فقال قائل : يا رسول ٱلله ! وما الوهن ؟ قال : « حبُّ الدنيا وكراهية الموت »[1] .

واستمرَّ المسلمون بهـٰذا الحال وزيادة ، حتىٰ أغار عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الأمم الأوربية النَّصرانيَّة الجاهلية ، المتحضِّرة الوحشية ، الكاسية العارية[2] ،

---

(١) رواه أبو داود عن ثوبان رضي ٱلله عنه ، كتاب الملاحم (٤٢٩٧) .

(٢) المطلع علىٰ تاريخ هـٰذه الأمم وطبيعتها يصدق هـٰذه الصفات المتناقضة .

فسلَّموها مفاتيح ملكهم ، واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخُلقي منزلةً أن وُجد فيهم أفرادٌ خانوا أمَّتهم ، وشروا[1] بلادهم بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة ، وتطوَّعوا في جنود العدو يفتحون بلادهم للأجنبيِّ علىٰ حسابهم .

ولٰكن هٰذا الهجوم الغربيُّ كان أشدَّ تأثيراً ، وأعمق أثراً ، وأبعد مدىً ، من الهجوم الشَّرقي ـ المغولي ، والتتري ـ فكاد يخمد كلَّ جمرةٍ في قلوبهم لم تخمدها العواصف طيلة هٰذه القرون ، وبقيت كامنةً في الرَّماد تخبو مرَّةً ، وتلهب مرَّةً .

ابتلاء المسلمين بالشكِّ والذلِّ النفسيِّ :

فتَّش عقلاؤهم[2] عن منابع القوَّة الكامنة في نفوس المسلمين ، وقلوبهم ، فوجدوا : أنَّ أكبر منبعٍ للقوة ، والحياة هو « الإيمان » وشهدوا ما فعل الإيمان قديماً من معجزاتٍ ، وخوارقَ ، وما هو خليق بأن يفعل ، فعادوه ،

---

(١) شروا : باعوا .

(٢) أي : عقلاء الأعداء .

وسلطوا علىٰ المسلمين عدوَّيْن هما أفتك بهم ، وأضرُّ لهم من المغول والتتار ، ومن الوباء الفاتك ، الأول : هو الشكُّ . . وضعف اليقين الذي لا شيء أدعىٰ للضعف ، والجبن منه . . والثاني : ما نعبر عنه بالذلِّ النفسي [1] وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذلَّة والهوان في داخل أنفسهم ، وفي أعماق قلوبهم ، ويزدرون بكلِّ ما يتَّصل بهم من دينٍ ، وتهذيبٍ ، وأخلاق ، ويستحيون من أنفسهم ، ويؤمنون بفضل الأوربيين في كلِّ شيءٍ ، ويعتقدون فيهم كلَّ خير ، ولا يكادون يعترفون بنقصٍ ، وعيبٍ في ناحيةٍ من نواحي الحياة ، ولا يصدِّقون بانهزامهم ، وفشلهم في ساعة من ساعات الدَّهر ، وإذا تمكن هـٰذا الذلُّ من نفوس أمَّةٍ ؛ فقد ماتت ، وإن كنت تراها تغدو ، وتروح ، وتأكل ، وتعيش !

ابتلاء المسلمين بعبادة المادَّة وحبِّ الدُّنيا :

وابتُلي المسلمون في هـٰذه المرَّة بتأثير الحضارة الغربية . . والفلسفة الغربية بعبادة المادَّة ، وحبِّ الدُّنيا ، والجري وراء النَّفع العاجل ، وتقديم المصالح الشَّخصية ، والمنافع الماديَّة علىٰ المبادئ ، والأخلاق شأن الأمم الأوربيَّة الجاهليَّة ، فكانت هـٰذه الأخلاق ، وهـٰذه النفسية ، والتربية

---

(1) وهو ما اعتاد الكتاب العصريون بتسميته « بمركب النقص » .

مانعاً من الجهاد في سبيل ٱلله ، وإعلاء كلمته ، ومن تحمُّل المشاقِّ ، وتجرُّع المرائر ، ومكابدة الأهوال ، والخسائر في سبيل المبدأ الصَّحيح ، والعقيدة السامية .

أسوأ جيل عرفه تاريخ الإسلام :

كان نتيجة هٰذا كلِّه أنْ ظهر جيلٌ في المسلمين متنوِّر الذهن ، ولٰكن مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدِّين ، قليل الصبر والجلد ، ضعيف الإرادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه . وآجله بعاجله ، ويبيع أمَّته ، وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجاهٍ وعزَّةٍ وهميَّةٍ ، ضعيف الثقة بنفسه وأمَّته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلىٰ غيره : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون : ٤] .

هٰؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن ، والوَهَن ، وصرفوا المسلمين عن الاتِّكال علىٰ ٱلله ، ثمَّ عن الاعتماد الاعتماد علىٰ أنفسهم إلىٰ الاعتماد علىٰ غيرهم ، والتكفُّف لديهم ، والالتجاء في مواقع الخطر إليهم ، وأطفؤوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل ٱلله ، والحميَّة للدين ، وأبدلوها بالوطنيَّة العليلة ، والقوميَّة الناعسة ، وأبدلوا جنونها الذي بعث الحكمة من مرقدها ، وأطلق العقل من أساره ، والذي تمكَّن ممَّا لم يتمكَّن منه العقل ، والعلم في آلاف من السنين ،

وأبدلوا هـٰذا « الجنون » الحكيم بعقلٍ ناقصٍ عليلٍ ، لا يعرف إلا الموانع ، والعراقيل .

وقد ظهر هـٰذا التحوُّل العظيم في العقيدة ، والنفسية ، والإفلاس في الروح ، والإيمان في شرِّ مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحةً للعالم العربيِّ في القرن الرابع عشر الهجري ، كما كان انكسار المسلمين ، وفشلهم الذريع أمام الزحف التتاري فضيحةً للعالم الإسلاميِّ في القرن الثامن ، فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية ، وتدافع عن وطن عربيٍّ إسلاميٍّ ، مقدَّسٍ ، عن القبلة الأولىٰ ، وعن المسجد الثالث الذي تشدُّ إليه الرِّحال ، وعن جزيرة العرب والأقطار العربية التي أصبحت مهدَّدة بالخطر اليهوديِّ ، فكانت حرب فلسطين دفاعاً عن حياةٍ ، وشرفٍ ، وعن دينٍ ، وعقيدةٍ ، وكان العالم العربيُّ بأسره إزاء دويلةٍ صغيرةٍ لم تستقرَّ بعد ، واتَّجهت الأنظار إلىٰ مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركةً مثل معركة اليرموك ، أو وقعةً مثل وقعة حطين ، ولماذا لا ينتظرونها والأمَّة هي الأمَّة ، والعقيدة هي العقيدة مع زيادةٍ فائقةٍ في العدد ، والعُدد ، فلماذا لا ينتصر العرب ؛ وهم عالمٌ ؟ ولماذا لا يقضون علىٰ عدوِّهم ؛ وهو حفنةٌ من المشرَّدين .

ولـٰكنهم نسوا ما فعلت الأيام ، وما فعلت التربية ، وما

فعلت الدول ، والزَّعامة السياسية ، وما فعلت المادِّية بالأمَّة العربية في هٰذا العصر ، لقد تقدَّم العرب إلىٰ معركة اليرموك حقاً ، ولٰكن بغير الإيمان الذي تقدَّم به أسلافُهم إلىٰ هٰذه المعركة في العصر الأوَّل .

لقد تقدَّموا إلىٰ وقعةٍ كانت وقعةً حاسمة كحطِّين ـ لو ظفر العرب ـ ولٰكنهم تقدَّموا بغير الروح التي تقدَّم بها صلاح الدين ، وجنده المؤمن المجاهد ، تقدَّموا بقلوبٍ خاويةٍ ، تكره الموت ، وتحبُّ الحياة ، وأهواءٍ مشتَّتةٍ ، وكلمةٍ متفرِّقة ، يريدون أن يربحوا النَّصر ، ولا يخسروا شيئاً ، وأن يحافظوا علىٰ شرفهم ، ولا يخاطروا بشيءٍ ، كلٌّ يعتقد : أنَّ غيره هو المسؤول عن الحرب ، وعن الغلبة ، والهزيمة ، ثمَّ هم يقاتلون ؛ وحبلهم في يد غيرهم ، إذا أرخي قليلاً تقدَّموا ، وإذا جرَّه تأخَّروا ، وإذا قال : حارِبوا ؛ حاربوا ، وإذا قيل اصطلِحوا ؛ اصطلحوا ، وما هٰكذا يُكتسب الظَّفر ، ويقهر العدوُّ !

أوردهـــا سعـــدٌ وسعـــدٌ مُشْتَمِـــل
مـــا هٰكـــذا يـــا سعـــدُ تُـــورَد الإبـــل

وبقي العالم متطلعاً إلىٰ ما قرأه في تاريخ الجهاد الإسلامي من روائع الإيمان ، وخوارق الشجاعة ، والصبر ، والاستهانة بالحياة ، والبسالة ، والبطولة ، والاستقبال

للموت ، والتمنِّي للشهادة ، وحسن النظام ، وروح الإطاعة والإيثار ، فلم ير من ذٰلك شيئاً ، إلا لمعات ، وإشراقات للإيمان كانت تظهر من بعض المتطوِّعين في حرب فلسطين ، والإخوان المجاهدين ، تجنَّدوا ، وتطوَّعوا للحرب بدافع الإيمان ، والدِّفاع عن الإسلام ، وحملتهم الحميَّة الدِّينية علىٰ المغامرة ، ودفعتهم إلىٰ ميدان الحرب ، فشرَّفوا الدين ، وأرعبوا القلوب ، وأعادوا التاريخ القديم ، وبرهنوا علىٰ أنَّ الإيمان لا يزال المنبع الفيَّاض للقوة ، والنظام ، وأنَّ عنده من القوَّة والنفوذ ، والتنظيم ، وروح المقاومة والجهاد ما ليس عند الدول الكبيرة المنظَّمة .

خاتمة

لقد ثبت ممَّا ذكرناه في هٰذا المقال ، وما سردناه من الأمثلة ، والأخبار ، وشهادات التاريخ ، ومشاهدات هٰذا العصر ـ وما حرب فلسطين منَّا ببعيد ـ : أنَّ المدَّ والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمدِّ ، والجزر في الإيمان ، وقوَّة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وأنَّ منبع قوة هٰذه الأمة في باطنها ، وهو القلب ، والروح ، فإذا عمر القلب بالإيمان بٱلله ورسوله ، واليوم الآخر ، وتزكَّت الروح بتعاليم الدين ، والأخلاق الإسلامية ، وجاش الصدر بالحمية

الدينية جيشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدَّتهم من القوَّة المادية ، وأعدُّوا للعدوِّ ما استطاعوا ، وأدركوا ما عليه العالم من جورٍ ، وظلم ، ومن جهالةٍ وسفاهةٍ ، وضلال في الدِّين والدنيا ، وعلموا : أنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام ، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم : ٤١] ، فانعطفوا عليه ، ورأوا كأنَّ العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم ، فسعوا به يُطفئون النار التي عمَّ الدنيا لهيبُها ، ونسوا في سبيل ٱلله لذَّاتهم ، وتكدَّر عيشهم ، وطار نومُهم ، وجُنَّ جنونهم ، فعند ذٰلك يتحوَّلون قوةً خارقةً للعادة ، لا يغلبها العالم ، ولو سعىٰ بأسره ، وجميع شعوبه ، وجنوده ، ودوله ، ويصيرون قضاء ٱلله الغالب ، وقدره المحتوم ، وكلمته العليا .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] .

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

بين الصُّورة والحقيقة (١)

إنَّ كلَّ شيءٍ له صورةٌ ، وحقيقةٌ ، . وبينهما فرقٌ كبيرٌ رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة في حياتكم ، وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، وأضرب لذٰلك مثلين : هـٰذه مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءىٰ للناظر كأنَّها تفاح ، ورمَّان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، في لونها وشكلها ، ولـٰكن أين الصورة من الحقيقة ، وأين طعم هـٰذه الثمار ، ورائحتها ؟ إنَّها ليست إلا للزينة ، أو المثال .

إنكم ترون في المتحف كلَّ نوعٍ من السباع ، والأنعام ، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب ، والأفيال ، والدباب ، وفيها كلُّ طائرٍ جارحٍ ، وكلُّ سبعٍ مخيف ، ولـٰكنَّها جثثٌ هامدة لا حراك بها ، وأجساد ميتةٌ

---

(١) محاضرة ألقاها المؤلف في حفل عام ، حضره آلاف من المسلمين ، عقدته جماعة التبليغ في سنة ١٩٤٩م في لكناؤ الهند ، ونقلها إلىٰ العربية ابن أخ المؤلف الأستاذ محمد الحسني .

محشوةٌ بالليف ، والقطن ، ليس فيها رمقٌ من حياة ، وقوةٌ تهجم بها ، وتصول ؛ حتىٰ لا تحسَّ منها من أحد ، ولا تسمع لها ركزاً .

إنَّ الصورة لا تستطيع أن تسدَّ مكان الحقيقة ، وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة ، وتأتي بما تأتي بها من عملٍ ونشاطٍ ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة ، وتكافحها ، فإذا وقع صراع بينهما ؛ انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة ، فإذا وكَّل أحدٌ إلىٰ الصورة وظيفة الحقيقة ، أو عوَّل عليها في مهمَّة ؛ خانته الصورة ، وخذلته أحوج ما يكون إليها .

والصورة ولو كانت مهيبةً هائلة ؛ تغلب عليها الحقيقة ، ولو كانت ضعيفةً متواضعة ، لأنَّ الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوىٰ من الصورة العظيمة المهيبة ، وإن الولد يقدر أن يسقط الأسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة النحيلة ؛ لأنَّ الولد يحمل حقيقةً ولو حقيقةً صغيرةً ، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورةً مهيبةً .

إنَّ هـٰذا العالم الذي نعيش فيه عالم الحقيقة ، والأمر الواقع ، وقد خلق ٱلله كلَّ شيءٍ علىٰ حقيقته : فللمال حقيقةٌ ، وحبُّه فطريٌّ طبعيٌّ ، ولأجل ذٰلك وردت عنه الأحكام ، ووضع ٱلله فيه التأثير ، والجذب ، وللأولاد حقيقة ، والحنان

إليهم ، وحبُّهم فطريٌّ ، ولأجل ذٰلك وردت الأحكام في الشرع عن تربيتهم ، وتعليمهم ، وكذٰلك للحاجات الطبيعية ، والميول الفطرية حقيقةٌ لا تجحد ، ولا تغلِب تلك الحقائقَ إلا حقيقةٌ أقوىٰ ، ورغبةٌ أعظم ، وأشدُّ .

إننا نحتاج إلىٰ حقيقة الإسلام والإيمان للظفر علىٰ الحقائق المبثوثة في العالم ، أمَّا صورة الإسلام ؛ فهي عاجزةٌ عن أن تقهر هـٰذه الحقائق ، وتنتصر عليها ، وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل ؛ لأنَّ الصورة المجرَّدة لا تنتصر علىٰ أيِّ حقيقة .

ولذٰلك نرىٰ اليوم بأعيننا : أنَّ صورة الإسلام أصبحت لا تغلب علىٰ الحقائق المادِّية الحقيرة ؛ لأنَّ الصورة ولو كان ظاهرها مقدَّساً رائعاً ؛ ليس لها سلطانٌ وتأثير ، وأن صورة إسلامنا ، وصورة كلمتنا ، وصلاتنا اليوم لا تقدر أن تتغلَّبَ علىٰ عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الخسيسة ، أو تُثبتنا علىٰ جادة الحقِّ عند البلاء ، والامتحان .

إنَّ الكلمة التي كانت من قبلُ ذاتُ سلطانٍ عجيب علىٰ القلوب ، والأرواح ، وكانت تهوِّن علىٰ الناس ترك المألوفات ، وقهر الشهوات ، والشهادة في سبيل ٱلله ، وبذل الأرواح والأنفس لِلَّهِ ، واحتمال المكاره ، وتجرُّع المرائر في سبيل ٱلله هي عاجزة عن أن تحمل الناس علىٰ ترك فرشهم بعد

أن استغرقوا في النوم طوال الليل ، ولم يقوموا لصلاة الفجر ، نعم ، الكلمة التي كانت تغلب علىٰ شهوة الخمر ، فتحول بين الإنسان وبين الكأس وهي علىٰ راحته ، فيمتنع عن شربها ؛ لأن الدِّين يمنع من ذٰلك ، ولأنَّ الكلمة تأبىٰ عليه أن يشرب الحرام ، ها هي الآن قد أصبحت لا تملك أمراً ، ولا نهياً .

سرِّح طرفك في تاريخ الإسلام ، وتجوَّل في فصوله ، وأوراقه ؛ يظهر لك : أنَّ كلمة الإسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الأولىٰ يتلفظون بها كانت ذات حقيقةٍ ثابتةٍ ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت ، وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها ، وكلمتنا نحن ألفاظٌ مجرَّدة ، ونطقٌ فارغ ، ولأجل ذٰلك ترىٰ عدم تأثيرها في حياة الأمة ، ثم إنَّنا مع ذٰلك نحاول أن نطبِّق حياة أصحاب النبيِّ ﷺ علىٰ حياتنا ، ونرجو أن تؤتي هٰذه الكلمة أكلها كلَّ حين ، وتحدث ما أحدثت في الماضي ، حتىٰ إذا لم يكن ذٰلك ـ بطبيعة الحال ـ تساءلنا ، وقلنا : « ألسنا مسلمين ؟ ألسنا نصلِّي ، ونصوم ؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ، ونردِّدها صباح مساء ؟ فلماذا هٰذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ؟ ! وماذا هٰذا البون الشاسع بين حظِّنا وحظِّهم ؟ ! وأين ثمرات شجرة الإيمان ؟ ! وأين نتائج الصلاة ، والصيام ؟ ! وأين وعد ٱلله من النصر المبين ، والاستخلاف والتمكين ؟ !

لا تخدعنا أنفسنا ! ! ولنعلم : أنَّهم كانوا أصحاب جدٍّ ، وحقيقةٍ في الدِّين ، لقد كانت كلمتهم حقيقةً ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجرِّدون عن هٰذه الحقائق ، فرجاءُ أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة ، وتغني غناءها إنما هو وهمٌ وخيال ، وضرب من المحال .

أما قرأتم في التاريخ : أنَّ ـ خبيباً ـ رضي ٱلله عنه ـ رفعوه علىٰ الخشبة ، وتناولوه بالرماح ، والأسنَّة ، حتىٰ تمزق جسمه ، وهو قائم لا يشكو ، ولا يئنُّ ، فقالوا له : « أتحبُّ أن يكون محمداً ﷺ مكانك ؟ ! فيضطرب ، ويقول : « وٱلله لا أحبُّ أنْ يفديني بشوكةٍ يشاكها في قدمه ! » يا أبناء الإسلام ! إنَّ الذي ثبَّته في هـٰذا المكان ، وألهمه أن ينطق بمثل هـٰذه الكلمة العريقة في حبِّ الرسول ﷺ هل هي صورة الإسلام ؟ لا ، بل هي الحقيقة التي مثلت بين عينيه الجنَّة ؛ والرِّماح تنوشه ، وتعبث بجسمه ، وناجته ، وقالت : صبراً يا خبيبُ ، فما هي إلا لمحات ، وثوانٍ ، وها هي الجنة تنتظرك ، ورحمة ٱلله ترتقبك ، فإذا احتملت آلام هـٰذا الجسد الفاني ، والحياة الزائلة العابرة ؛ نلت السعادة الدائمة ، والحياة الباقية .

هـٰذه هي اللَّذة الرُّوحية ، وحقيقة الحبِّ ، والإيمان التي أبت علىٰ خُبيب أن يُطْلَق ؛ ويؤذىٰ رسول ٱلله ﷺ بشوكةٍ في

قدمه ، فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها علىٰ هٰذا الإخلاص والتفاني ، والثبات علىٰ العقيدة ، والصبر علىٰ الموت ؟ ! كلا ، إنَّ الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد ، والآلام ، بل حتىٰ الخيالات ، والأوهام . وقد بدا لنا ذٰلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند ، فإنَّ أناساً من المسلمين قد غيَّروا صورة الإسلام خوفاً ممَّا مر بخاطرهم من الفزع ، وخشية الموت ، وما دار في رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعار الكفر ، وذٰلك ؛ لأنَّ هٰؤلاء الناس قد كانوا متحلِّين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صهيب ، رضي ٱلله عنه ، فلمَّا كان في الطريق ؛ اعترضته جماعةٌ من مشركي مكَّة ، وقالوا له : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ، ونفسك ؟ وٱلله لا يكون ذٰلك ! وهناك قامت المعركة بين حقيقة الإسلام ، وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحىٰ الحرب ، فانتصرت حقيقة الإسلام علىٰ ضدِّها ، وقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي أتخلُّون سبيلي ؟ ! قالوا : نعم ! قال : فإنِّي قد جعلت لكم مالي [(١)] ! وهٰكذا انطلق صهيب بدينه ، متجرِّداً من ماله ، فرحاً مسروراً

---

(١) سيرة ابن هشام ـ ج٢ ص١٢١ .

كأنَّه لم يفقد شيئاً ، ولم يخسر شيئاً .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه ، وابنه يريد المدينة ، فلمَّا رآه رجال من بني المغيرة ؛ قاموا إليه ، فقالوا : هـٰذه نفسُك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هـٰذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ ! ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولدَه الصَّغير ، هناك اصطدمت حقيقة الإسلام بحبِّ الزوج ، والولد ، فما أوشكت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه ، وولده تحت رعاية ٱلله ، وهاجر وحيداً ! هل الصَّورة تستطيع ذٰلك ؟ وهل يقدر أصحابها علىٰ ترك الزَّوجات ، والأولاد في سبيل العقيدة والدِّين ؟ ! كلا ! بل سمعنا : أنَّ أناساً قد ارتدُّوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد ، وغير ذٰلك من متاعِ الدنيا وزخارفها .

كان أبو طلحة مقبلاً علىٰ صلاته ، فإذا طائر يدخل في بستانه ، ثم لا يجد الطريق للخروج ، ويميل إليه قلب أبي طلحة ، فلمَّا انصرف من صلاته تصدَّق بهـٰذا البستان ؛ لأنه لا يحبُّ أن يشغله شيءٌ عن حقيقة صلاته ، وينازع قلبه .

إنَّ للبستان حقيقة ، ولثمره ، وأكله حقيقة ، ولا تغلب هـٰذه الحقائقَ إلا حقيقةُ الإسلام ، وإنَّ صلاتنا اليوم مجردةٌ عن الحقيقة ، ولذٰلك لا تقدر أن تقاوم أدنىٰ الحقائق المادية .

لقد كان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأمَّا الروم فقد كان عددهم يبلغ مئتي ألف أو يزيدون ، فإذا نصرانيٌّ كان يقاتل تحت لواء المسلمين ، يقول : ما أكثر الرُّوم ، وأقلَّ المسلمين ، فيقول خالدٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ : وٱلله لوددت أنَّ الأشقر براءٌ مِنْ توجِّيه ، وأنهم أضعفوا في العدد (١) .

بم كان خالد ـ رضي ٱلله عنه ـ مطمئناً ، ولم لم يشغل خاطره هٰذا العدد الهائل ، وَلِمَ لم تكبر في عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذٰلك ؛ لأنه كان مؤمناً بٱلله واثقاً بنصره ، ولأنه كان يعلم : أنَّه علىٰ الحقيقة ، وأن مقابله صورةٌ فحسب ، وأنَّ الرُّوم صورةٌ فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد : أنَّ الصورة مهما كثرت ، لا تقدر أن تقاوم حقيقة الإسلام .

لا شكَّ أنّنا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا من يعرف ما يقول ، ولٰكن الصُّورة شيءٌ والحقيقة شيءٌ آخر ، إنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ والمسلمين الصادقين كانوا علىٰ حقيقة هٰذه

---

(١) الأشقر فرس خالد وكان قد حَفِيَ ، واشتكىٰ في مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج٨ ص٩) ، ووجيَ الفرسُ ، وتوجَّىٰ : أصيب بالوجَىٰ ، وهو أن يشتكي باطن حافره .

الشهادة ، فإذا قالوا : لا إلـٰه إلا ٱلله ؛ اعتقدوا : أنَّه لا إلـٰه غيره ، ولا ربَّ غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ، ولا ضارَّ إلا هو ، له الملك ، والحكم ، والخلق ، والأمر ، وبيده ملكوت كل شيء ، يجير ، ولا يجار عليه ، وأخلصوا له الحبَّ ، والخوف ، والسؤال ، والرَّجاء ، والعبادة ، والدُّعاء ، وأصبحوا عباداً حنفاء ، شجعاناً أقوياء ، لا يهابون العدوَّ ، ولا يخافون الموت ، ولا يُبالون بلومة لائم .

نرجع إلىٰ أنفسنا ، ونفكِّر : هل هـٰذه هي الحقيقة متغلغلةٌ في أحشائنا ، ومتسربةٌ في عروقنا ، وشرايينا ، وهل غَرْسُ حياتنا يسقىٰ بهـٰذا الماء ؟ معذرةً وعفواً أيُّها السادة ، إنَّا نخاف ألَّا يكون الأمر كذٰلك ، وأنَّ نصيب الصورة في حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذٰلك موضع الضعف في حياتنا ، وسرُّ شقائنا ، ومصائبنا ، إنَّنا جميعاً نؤمن : أنَّ الآخرة حقٌّ ، والجنَّة حقٌّ ، والنَّار حقٌّ ، والبعث بعد الموت حقٌّ ، ولـٰكن هل إنَّنا حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبيِّ ﷺ ومن تبعهم بإحسانٍ ؟ وقد سمعنا : أنَّ أحدهم كان بيده تمرات يأكل منهنَّ ، فسمع رسول ٱلله ﷺ يقول : « قوموا إلىٰ جنَّة عرضها السمـٰوات والأرض » فرمىٰ بما معه من التَّمر ، وقال : لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمراتي هـٰذه ؛ إنها لحياة طويلةٌ ، وقاتلهم حتىٰ قُتل ؛ لأنَّ الجنة كانت عنده حقيقة لا يشكُّ فيها ، فمن

ذٰلك يقول أنس ابن النَّضْر : إنّي لأجد ريح الجنَّة من دون أحدٍ .

أتىٰ رجلٌ من المسلمين يوم اليرموك ، وقال للأمير : إني قد تهيأت لأمري ، فهل لك من حاجةٍ إلىٰ رسول ٱلله ﷺ ؟ قال نعم ! تقرئه عنِّي السلام ، وتقول : يا رسول ٱلله ! إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً !

أفيقول هـٰذا إلا مَنْ يوقن : أنَّه مقتول في سبيل ٱلله ، وملاقٍ رسول ٱلله ، ومجتمعٌ به في نعمة ٱلله ، وأنَّه مكلِّمه ، ومحدِّثه ، فإذا حصل لرجلٍ مثل هـٰذا اليقين ، فما الذي يمنعه من استقبال الموت ، وما الذي يحول بينه وبين الشهادة ؟ !

إن أكبر انقلابٍ وقع في تاريخ هـٰذه الأمَّة هو : أنَّ الصورة احتلَّت مكان الحقيقة ، واستولت علىٰ حياة الأمَّة ، وذٰلك من عهد بعيدٍ في التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيدٍ يعتقدون : أنَّها الحقيقة ، ولذٰلك يذعرون ، ويشفقون من قربها ، فكانت هـٰذه الصورة الإسلاميَّة كمِجْدارٍ[1] ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحلَّ فيه الطير ، والوحش ، ولا تزال الطيور ، والوحش تظنُّ : أنَّه إنسان ، أو حارس ، فلا تقربه ؛ حتىٰ يتشجَّع غرابٌ ذكيٌّ ، أو حيوان جريء ، فيجد : أنَّه ليس

---

(١) **المجدار** : ما ينصب في الزرع مزجرةً للسِّباع . (قاموس) .

بشيء ، هنالك تدخل الطيور ، والوحش في هٰذا الحقل ، وتعيث فيه ، وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الإسلام مدَّةً طويلةً جداً ، فلم تجترئ عليهم أمم العالم ، ولم يَدُرْ بخلد أحدٍ أن يمتحن هٰذا الشبح المخيف ، ويتحققه .

ولٰكن حتىٰ متىٰ ؟ ! لما أغار التتار علىٰ بغداد ، افتضَح المسلمون ، وظهر إفلاسهم في الرُّوح ، والقوَّة المعنويَّة ، من ذٰلك الحين أصبحت الصُّورة عاجزةً عن أن تحافظ عليهم ، وتذود عنهم المكروه ، وتدفع عنهم غارات الأمم ، فإنَّ الصورة لا تقوم إلا علىٰ الجهل ، والغرور ، فإذا انكشف الغطاء ، وزاح الستار ؛ تبيَّن الصُّبح لذي عينين .

وإنَّ ما نرىٰ ونقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين ، وهزيمتهم في ميادين القتال ، إنَّ كل ذٰلك أخبار انخذال الصُّورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحتنا الصورة في كلِّ معركةٍ ، وحربٍ ، ومقاومةٍ ، واصطدام ، ولٰكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة علىٰ ظهر الصُّورة ، فلَم تستطع حمله ، ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة ، فخيَّبت رجاءنا ، وكذَّبت أمانينا ، وخذلتنا في الميدان .

تكرَّر الصِّراع بين صورة الإسلام ، وشعوب العالم وجنودها ، وفي كلِّ مرَّةٍ تنخذل ، وتنهزم الصورة ، ويعتقد

الناس : أنَّه هزيمة الإسلام ، وخذلانه ، وبذٰلك هان الإسلام في عيون الناس ، وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدري الناس : أنَّ حقيقة الإسلام لم تتقدَّم إلىٰ ساحة الحرب منذ زمنٍ طويل ، ولم تنازل أمم العالم ، وأنَّ الذي يبرز في الميدان هو صورة الإسلام لا حقيقته ، وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجدِّ .

هاجمت بعض الدول الأوروبية في الحرب الأولىٰ تركيا الإسلاميَّة ، تركيا التي أرعبت أوربا كلَّها ، وهزمت دولها مرَّة بعد مرَّةٍ ، وكانت تركيا في هٰذه المرة حاملةً لصورةٍ شاحبةٍ للإسلام ، وقد فقدت شيئاً من حقيقة الإيمان ، ففشلت في المقاومة ، وفقدت كثيراً من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دولٍ عربيَّةٍ لمحاربة الصهيونية في فلسطين ، وكانت هٰذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت الماديِّة الأوروبية جمرة القلوب ، وشعلة الجهاد في سبيل ٱلله ، وحبَّبت إليها الحياة ، واللَّذات ، ثم إنَّها تتخلَّف تخلُّفاً كبيراً في المعدَّات الحربية ، والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين ، واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة كلِّ صراع بين الصورة ، والقوَّة .

إنَّ الصورة لها منزلةٌ ومكانة عند ٱلله تعالىٰ ، لأنّه قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبُّها ٱلله ؛ لأنها صورة أوليائه ، ومحبِّيه ، وكذٰلك نعرف لها الفضل ؛ لأنَّ الانتقال من صورة الإسلام إلىٰ حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر ، أو صورته إلىٰ حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ علىٰ هٰذه الصورة ، ولنتمسك بها ، ولٰكن لا ينبغي أن نقنع لها ، ونستهين بالحقيقة والرُّوح .

يا أبناء الإسلام ! إنَّ وعد ٱلله من النُّصرة ، والفتح في الدنيا ، والنَّجاة والغفران في الآخرة ، كلُّ ذٰلك محصورٌ في حقيقة الإسلام ، وذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] لا شكَّ فإنَّ الخطاب في هٰذه الآية للمسلمين ، ومع ذٰلك اشترط الإيمان للعزَّة في الأرض ، والعلوِّ ، والشوكة . وقال في موضع آخر : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر : ٥١] ، وقال أيضاً : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور : ٥٥] ، ورغم : أنَّ جميع تلك الوعود كانت علىٰ أساس الإيمان ، والأعمال الصالحة اشترط أن يكون في

المسلمين حقيقةُ الإيمان ، والتوحيد .

إنَّ أكبر مهمَّةٍ دينية في هـٰذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلَّها للأمة الإسلامية هي دعوة السواد الأعظم للأمَّة وأغلبيتها الساحقة إلىٰ الانتقال من صورة الإسلام إلىٰ حقيقة الإسلام ! فلمثل هـٰذا فليعمل العاملون ، ويبذلوا جهودهم ، ومساعيهم في بثِّ روح الإسلام في جسم العالم الإسلامي ، ولا يدَّخروا في ذٰلك وسعاً ، فبذٰلك يتحوَّل شأن هـٰذه الأمة ، وفي نتيجته شأن العالم بأسره ، فإنَّ شأن العالم تبعٌ لشأن هـٰذه الأمة ، وشأن الأمة تبعٌ لحقيقة الإسلام ، ومن ينفخ فيه الروح . قال سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحابه : « أنتم ملح الارض ، فإذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ » .

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح ، لأنَّ السواد الأعظم للأمَّة مجرَّدٌ عن الروح ، فارغٌ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروح ، والحقيقة في الحياة الإنسانية مرَّةً أخرىٰ ؟ !

إنَّ في هـٰذا العالم أمماً لا تزال فارغةً عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور إلىٰ يومنا هـٰذا ، ولم يبق فيها إلا عدَّة معتقدات مرسومةٍ ، وبضع صور حقيرةٍ مجرَّدة عن الرُّوح ، وانتهت حياتنا الدينية ، والروحية الحقيقية ، حتىٰ إنَّ إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هـٰذه الأمم ، وتجديد حياتنا الدينية ، والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها ، وبذلوا قصارىٰ جهدهم

في هٰذا السبيل قد أخفقوا ، ولم يفلحوا في مهمَّتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هٰذا العهد من الطَّبع ، والنَّشر ، والتأليف ، والإذاعة ، والتعليم ، والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ، وذٰلك ؛ لأنَّ عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تامَّاً ، وانقطعت علاقتُها عن منبع الحياة الدينية ، والخلقيَّة ، والروحيَّة .

أمَّا الأمة الإسلامية فلا تزال ـ علىٰ علاتها وضعفها ـ مستمسكةً استمساكاً ما بعروة الدِّين ، وهي الإيمان بٱلله ، والرسول ، واليقين بالدار الآخرة ، والحساب ، لم تتركها ألْبَتَّةَ ، ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرىٰ ، بل إنَّ إيمان كثير من عامَّة المسلمين ، ودهمائهم يزري بإيمان كثير من خواصِّ الأمم الأخرىٰ ، وعِلْيَتِهِمْ[1] ، ويفوقه متانةً ، ورسوخاً ، وحماسة ، ثم إنَّ كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولىٰ ، ولا تزال سيرة الرسول ، وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة إلىٰ الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتِّقاد ، والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرةٌ ، والقنطرة بينهما الدعوة إلىٰ تجديد الإيمان ،

---

(١) عِلْيَةُ الناس : أشرافهم العالين . (قاموس) .

والرجوع إلىٰ الدين ، والتشبُّع بروحه ، والتحلِّي بحقيقته .

لست قانطاً من ظهور حقيقة الإسلام في هـٰذا العصر ، ولا نصدق أبداً بأن الزمان قد تغيَّر ، والمسلمون قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام ، فلا أمل في حقيقة الإسلام وغلبتها من جديدٍ ، انظروا إلىٰ ورائكم ترون جزر حقيقة الإسلام قائمةً منتشرةً في فجر التاريخ ، وأنَّ الحقيقة لم تزل تطفو كلَّما رسبت ، وتظهر كلَّما اختفت ، وكلَّما ظهرت حقيقة الإسلام ، وتجلَّت في ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلامي ، أو عصرٍ من عصور التاريخ الإسلاميِّ ؛ غلبت ، وانتصرت ، وكذَّبت تجارب الناس ، وقياسهم ، وتقديرهم ، وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلىٰ ما كانت عليه في الماضي السعيد ، وهبَّت علىٰ قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وإنَّ حقيقة الإسلام في هـٰذا العصر إذا ظهرت وتمثلت في جماعة ؛ تستطيع أن تذلِّل كلَّ عقبةٍ ، وتهزم كلَّ قوة ، وتأتي بعجائبَ ، وآياتٍ من الإيمان ، والشجاعة ، والإيثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل عن تعليل حوادث الفتح الإسلاميِّ ، وأخبار القرون الأولىٰ .

✍ ✍ ✍

ثورةٌ في التَّفكير [1]

إنّنا ـ معشر المسلمين ـ في حاجة إلىٰ ثورة ، ثورة في التفكير .

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر إلىٰ أنفسنا كمجموعةٍ بشريَّةٍ موزَّعةٍ في العالم ، منتشرةٍ في البلاد ، ذات قومياتٍ مختلفةٍ ، ولغاتٍ متنوِّعةٍ ، وثقافاتٍ محلِّية ، محاطةٍ بظروفٍ ، وأجواء خاصَّةٍ ، و« إمكاناتٍ » محدودةٍ ، تجمع بين فروعها المختلفة ، وأسرها المتِّشتتة « وحدتان » اثنتان لا ثالثة لهما : « العقيدة ، والخضوع للغرب ، والانحصار عليه في المعيشة والسياسة » .

ومنذ مدَّةٍ طويلةٍ بدأنا نزن أنفسنا ، وقيمتنا ، ومكانتنا في خارطة العالم بهٰذه الطاقات ، و« الإمكانات » ، وبما نملكه من الوسائل ، والموادِّ الخامِّ ، وحواصل البلاد ، ومنتجاتها ، وعدد النفوس ، والقوَّة الحربيَّة ، فنرىٰ كفتنا راجحةً في

---

(١) مقال كتبه المؤلف افتتاحية لمجلة « المسلمون » الصادرة في جنيف .

إقليمٍ ، طائشةً في آخر ، راجحةً في حين ، طائشة في حينٍ آخر .

ومنذ مدَّة طويلة آمنَّا بسيادة الغرب ، وقيادته ، وأنَّه أمرٌ مقرَّرٌ ، وواقعٌ ليس منه مفرٌّ ، وآمنا بأنَّه وضعٌ لا يقبل التحوُّل ، ولا التطوُّر ، وتجدَّد المثل القديم ، وأصبح عقيدةً شائعةً : « إذا قيل لك : إن التتر انهزموا فلا تصدق »[1] .

وأصبحنا لا نفكِّر في معارضة الغرب ، ومناقشة سيادته ، وجدارته للسيادة ، وإذا فكَّرنا في ذٰلك ـ علىٰ حين غفلةٍ من العلم ، والدِّراسة ، والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا والقوَّة الحربيَّة في بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربيَّة ، والطاقات الذريَّة ، فاستولىٰ علينا اليأس ، والتشاؤم ، وآمنَّا بأنَّنا لم نخلق إلاَّ للخضوع ، والخنوع ، ولنعيش علىٰ هامش الحياة ، وعيالاً علىٰ الغرب ، مرتبطين ، ومعقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين .

هٰكذا يفكر الناس في اليابان ، وفي الصين ، وفي الهند ، وفي سيام ، وفي بورما .

---

(١) كذٰلك الجملة المأثورة في المجتمع الإسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الإسلامي ، وإخضاعه من أقصاه إلىٰ أقصاه .

هٰذا هو التفكير « السليم » وهٰذا هو المنطق « السديد » ـ كما يسمِّيه الناس ـ هٰذا هو الاستنتاج العلميّ المبني علىٰ الدراسة ، والإيمان بقوَّة الأسباب ، وطبيعة الأشياء .

ولٰكن هناك جماعة لا تقبل هٰذا التفكير ، ولا تؤمن بهٰذا المنطق ، بل تثور علىٰ هٰذا المنهج الفكريِّ ثورةً قويَّةً عارمةً ، إنَّ لها منهجاً ـ في العمل ـ مختصَّاً بها ، وإلىٰ هٰذا المنهج يرجع الفضل في أفضل الثورات ، وأصلها وأقواها في التاريخ ، وفي تغيُّر الأوضاع في العالم تغيُّراً مدهشاً ، وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل ، وصلاح المجتمع البشريِّ بعد الفساد الشامل .

ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هٰذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم ـ التي تؤمن بالمبادئ ، وتحتضن الدَّعوات ـ إلا في هٰذا المنهج .

ولنفهمَ هٰذا المنهج ، وقوَّته ، وفضله ، ونتائجه الباهرة للعقول نرجع قليلاً إلىٰ الماضي ، ونستوحي « الصحف الصادقة » : يولد موسىٰ في مصر في بيئة قاتمةٍ خانقةٍ ، قد انطبقت علىٰ بني إسرائيل كلَّ الانطباق ، وسدَّت في وجوههم المنافذ ، والأبواب ، حاضرٌ شقيٌّ ، ومستقبلٌ مظلمٌ ، وقلَّة

عددٍ ، وفقرُ وسائلَ ، وذِلَّةُ نفوسٍ ، عدوٌّ قاهرٌ ، وسخرةٌ ظالمةٌ ، لا قوَّة تدافع ، ولا دولة تحمي ، أمَّةٌ مصيرها معلومٌ محتومٌ ، قد خلقت للشَّقاء ، والفناء .

ويولد موسىٰ ، وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ، ومنطق الأشياء ، أراد فرعون ألاَّ يولد ، فولد . وأراد ألاَّ يعيش ، فعاش في صندوق خشب مسدود ، وفي ماء النيل الفائض ، وينشأ في حضانة العدوِّ ورعاية القاتل ، ويجدُّ به الطَّلب القويُّ الساهر ، فيفلت ، وينجو ، ويأوي إلىٰ ظلِّ شجرة كئيباً غريباً ، فيجد الضيافة الكريمة ، والزَّواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم ، والطريق الموحش ، وتمخَّضَتْ[1] زوجه ، فيطلب لها ناراً تصطلي بها ، فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل ، ويهتدي به العالم ، يطلب النَّجدة ، والمدد لامرأةٍ واحدةٍ ، فيجد النجدة ، والمدد للإنسانية كلِّها ، ويُكْرَم بالنبوَّة ، والرِّسالة .

ويدخل علىٰ فرعون في أبهته ، وسلطانه ، وفي ملئِه ، وأعوانه ، وهو المطلوب بالأمس ، قد تحقَّقت عليه الجناية ، وتوجَّهت إليه الدَّعوىٰ ، وفي لسانه حبسةٌ ، وفي موقفه ضعفٌ ، فيقهر فرعون ، وملأه بدعوته ، وإيمانه ، وحجَّته ،

---

(١) **تمخَّضت الحامل** : أخذها المخاض (قاموس) .

وبيانه ، ويلجأ فرعون إلىٰ سحرة مصر ؛ ليقهر بفنِّهم معجزة موسىٰ التي ظنَّها فنّاً ، وسحراً ، فإذا بالسَّحرة خاضعون خاشعون ، يقولون : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء : ٤٧ ـ ٤٨] .

ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل ، والإسراء في الليل من أرض الظلم إلىٰ أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسىٰ ؛ والبحر أمامه ، والعدوُّ من ورائه ، ويخوض البحر ، فينفلق ، ويكون كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسىٰ ، وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده ، فيلتهمهم البحر الهائج .

وهٰكذا يهلك فرعون ، وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو إسرائيل الضعفاءُ الفقراءُ : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

ما هي القوة التي قهر بها موسىٰ أعظم قوَّةٍ في عصره ومصره ، وما سرُّ انتصار بني إسرائيل علىٰ أعدائهم ، وما سلاحهم الذي واجهوا به العدوَّ القاهر الكاسر ، وأخضعوا به المحيط الخانق الثائر ؟

اقرأ قصَّة موسىٰ ـ في القرآن ـ من جديد ؛ تر : أنَّ السِّلاح الذي واجه به موسىٰ فرعونَ وقومَه ، وانتصر به بنو إسرائيل ، وتبوَّءُوا الإمامة والزعامة في مصر وحولها ، هو « الإيمان » و« الطاعة » و« الدَّعوة إلىٰ ٱلله » ويتجلَّىٰ هـٰذا الإيمان ، وهـٰذه الطاعة والدَّعوة في ثنايا القصَّة ، ومطاويها ، وقد تجلَّىٰ هـٰذا الإيمان النبويُّ في دعوة فرعون وقومه ، وبه تغلَّب موسىٰ علىٰ حِجاج فرعون ودهائه ، هو يريد أن يشغله عن موضوعه ، ويثير عليه الملأ ؛ وهو ثابت علىٰ دعوته ، ثابت في إيمانه ، لا يتزعزع ، ولا يتزلزل ، ولا يتحوَّل ، ولا يتغيَّر . قال فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٨] .

ويسأله فرعون عن الأجيال التي مضت قائلاً : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ٥١] وهو موضوع شائك ، وسؤال محرج ، ولـٰكن موسىٰ يتغلَّب علىٰ دقَّة الموقف بإيمانه الراسخ ، وحكمته النبوية ، فيقول : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] . ويفيض في الحديث عن الإلـٰه الواحد ـ الذي يفرُّ منه فرعون ـ فيقول : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ

لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه : ٥٣] .

ويتجلَّىٰ هـٰذا الإيمان في أبرز مظاهره ، لمَّا رأىٰ موسىٰ أمامه البحر المائج ، ومن ورائه العدوُّ الهائج ، فلا متقدم ولا متأخر ، وهو وقومه بين طبقتي الرَّحىٰ ، ويناديه بنو إسرائيل في جزع ، وفي فزع : ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ولـٰكنه ثابت الجأش ، قويُّ الإيمان ، يعرف : أنَّ ٱلله ناصر عبده ، ومنجز وعده ، يقول في صراحةٍ ، وثقةٍ : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

ويعيش بنو إسرائيل في مصر حياة ذلٍّ وشقاءٍ ، وبؤسٍ وفقرٍ ، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد ، وأقسىٰ أساليب الحكم والاستبداد ، فيؤمرون بالإنابة إلىٰ ٱلله ، وتقوية الإيمان ، وتحسين الصِّلة بٱلله ؛ ليستحقُّوا نصره ، ويوجد في أنفسهم صلاحية الوراثة ، والخلافة في الأرض : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

ولا طاعة أعظم من طاعة موسىٰ ، وانقياده ، واستسلامه للأمر الإلـٰهي ، يؤمر بالتوجُّه إلىٰ أعظم ملوك عصره ـ وهو الثائر الموتور ، شديد البطش ، عظيم السلطان ـ فيقال :

﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٤ / النازعات : ١٧] . ويتوجه إلىٰ بلاط جبارٍ يدَّعي الرُّبوبيَّة ، فيدعوه إلىٰ ٱلله الواحد القهار ، ويستمرُّ في دعوته ، وجهاده ، وفي وعظه ، وإرشاده ؛ حتىٰ يفتح ٱلله بينه وبين قومه بالحقِّ وهو خير الفاتحين .

لقد كان الإيمان ، والطاعة ، والدَّعوة إلىٰ ٱلله القوَّة التي واجه بها موسىٰ « مشكلات عصره » وقهر بها أعظم إمبراطورية علىٰ وجه الأرض ، أرقاها مدنيَّةً ، وأوسعها رقعةً ، وأغناها أسباباً ، وأعظمها جبروتاً .

لو كان موسىٰ ـ كزعيم لبني إسرائيل ـ يفكِّر تفكير الزعماء السياسيين ، ويستعرض « الإمكانيات » والوسائل التي يملكها قومه ، ويزن كلَّ شيء في ميزان الواقع ، والحكمة العملية ، ولو نظر ـ وهو الذي نشأ في البلاط الملكي ـ إلىٰ العَدَدِ ، والعُدَّة ، والعزَّة والمنعة ، والجنود ، والبنود ، والثروة ، والذخائر التي كان يملكها فرعون ، وقارن في ذٰلك بين قومه وقوم فرعون ؛ لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يواجه فرعون بما يسوءُه ، ولتحتَّم عليه أن يقنع بحظَّة قومه ، ويرضىٰ بالوضع السائد ، فلا إيمان ، ولا صلاح ، ولا عدل ، ولا أخلاق ، ولا تقوىٰ ، ولا إنسانية .

ولٰكنَّه نبيٌّ يرشده الوحي ، ولٰكنَّه مؤمنٌ بقوَّة ٱلله ، ويؤمن بنصر ٱلله ، ولٰكنَّه داعيةٌ يفكِّر تفكير الدعاة ، وأنَّ هٰذا

المنهج من التفكير ، والعمل هو الذي غيَّر مجرىٰ التاريخ ، وأتىٰ بالمعجزات ، وأدهش العقول ، وحيَّر الألباب .

ولو كان الرسول الأعظم محمَّد بن عبد ٱلله ﷺ يفكِّر تفكير الزعماء ، ويستعرض الإمكانيات ، والوسائل ، التي كانت تملكها قريش ، ولو أنَّه نظر إلىٰ الإمبراطوريتين العظيمتين اللَّتين توزعتا العالم المتمدِّن المعمور : الإمبراطورية الرومية ، والإمبراطورية الفارسية ، وما تتمتَّعان به من حولٍ ، وطول ، وقد عرف قوَّتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعي ـ لما جاز له ـ في شريعة الفعل ـ أن يتوجَّه بدعوته إلىٰ الإنسانية جميعاً ، ويكتب إلىٰ سيدَي العالم المعاصر ، ورئيسي الإمبراطوريتين : الغربية ، والشرقية ، يدعوهما إلىٰ الإسلام ، ولبقي الوضع الذي كان يسود من قرون ، فمتىٰ تملك هـٰذه الحفنة البشرية التي آمنت به ، القوَّة التي تضارع قوَّة الإمبراطوريتين بل تفوقها حتىٰ تهزمها وتدحرها ؟ وإلىٰ متىٰ كان يجب عليه أن ينتظر ؟ وماذا كان مصير العالم ، ومصير الإنسانية لو اتَّجه هـٰذا الاتجاه ، وفكَّر هـٰذا التفكير ؟

لقد شقيت الإنسانية إذاً شقاء طويلاً ، وتأخَّر ، أو توقَّف طلوع الصبح الصَّادق ، ولكان للإنسانية تاريخٌ غير هـٰذا التاريخ .

ولـٰكنَّـه ﷺ نبـيٌّ يـؤمـر ، فيعمـل ، ويتلقَّـىٰ التـوجيـه ، والإرشاد من السماء ، فينفِّذ ، ولـٰكنه مؤمن يؤمن بقوَّة ٱلله ، ويؤمن بنصره ، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قويٌّ ، والقويُّ يخذل ؛ لأنه ضعيف ، يؤمن بقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] ، ويؤمن بقوله : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ويؤمن بأن ٱلله قد تكفل بنصر مَنْ ينصر دينه ، وينهض لإعلاء كلمته ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] وقال : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصف : ١٧١ ـ ١٧٣] ، ويـؤمـن بـأنَّ ٱلله قـد وعـد بـالانتصـار ، والغلبة ، والعلوِّ ، والسيادة لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الإيمان ، وتجلَّت فيهم حقيقته ، فقال : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، ولم يَعِدْ بشـيءٍ مـن ذٰلـك مـن النصـر ، والفتـح ، والظفـر والغلبـة ، والعلـوِّ ، والسيـادة علـىٰ الأهـواء والنـزعـات ، والطمـوح والكبرياء وحبِّ المجد الفرديِّ ، أو القومي وشرف الدماء ، والأنسـاب والبـلاد ، والعصبيـات ،

والقوميات ، فلم يتقدَّم بشيء من ذٰلك إلىٰ العالم ، ولم يطلب به النصر ؛ مع أنه ﷺ من أشرف الأمم ، وأفضل البيوتات ، وأقدس البلاد ، إنما تقدَّم بدعوةٍ دينية ، ومنهجٍ خاصٍّ للحياة لا غنىٰ للأمم ، وطوائف البشر عنه علىٰ اختلاف أوطانها ، وألوانها ، ولغاتها ، فخضعت له هٰذه الأمم ، وهٰذه الطوائف من البشر ، ولم تعقها عن ذٰلك عصبيةٌ ، أو قوميَّةٌ ؛ لأنه لم يكن من دعاة عصبيةٍ ، أو جاهليَّةٍ وإنَّما كان رائد دينٍ عامٍّ للإنسانية ، وداعي عقيدة ، ومبدأ ، ومنهج فاضلٍ للحياة ، ونصره ٱلله علىٰ قلةٍ ، وضعفٍ ، وفقرٍ ، ونصر كلَّ من قام بهٰذه الدعوة الدينية ، وبهٰذا المنهج الخاصِّ للحياة ، وتكفَّل بنصرهم إلىٰ آخر الدهر ، فقال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

إنَّني لست ممَّن يدعو إلىٰ رفض الأسباب ، والتوكُّل السلبي ، ولست ممَّن يعيش في عالم الخيال ، والأحلام ، ولست ممَّن ينكر الحاجة إلىٰ الاستعداد ، وممن لم يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وقد لمت العالم الإسلاميَّ ، ومن تزعمه من الشعوب ، والدول لوماً شديداً في كتابي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » علىٰ التقصير في الاستعداد الحربي والصناعي ، والتخلُّف عن أوروبا في ذٰلك ، واعتبرت ذٰلك سبباً من أسباب شقاء

الإنسانيَّة ، واتجاه العالم من الرَّشاد إلىٰ الضلال . ومن البناء ، وإلىٰ الازدهار إلىٰ الهدم والدَّمار .

ولـٰكني أعارض هـٰذا التفكير الذي تسلَّط علىٰ عقلية العالم الإسلامي في العهد الأخير ، وهو النظر إلىٰ الأمم الإسلامية ـ في مختلف أنحاء العالم ـ ككتلٍ بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرىٰ التي لا رسالة لها في العالم ، ولا دعـوة لهـا لـلأمـم ، تـوزن فـي ميـزان الإمكـانيـات ، والوسائل ، والاستعداد الماديِّ ، وتقوَّم بما تملكه ، من ثروةٍ ، وذخائر ، والتناسي ، أو الإعراض عن قوَّتها الكبرىٰ : « الإيمان ، والطاعة ، والدَّعوة إلىٰ ٱلله » .

إنَّنـا يـا قـوم فقـراء ، ضعفـاء ، متخلفـون فـي العلـم ، والصناعة ، وفي الاقتصاد ، والسياسة ، المسافة بيننا وبين الأمم الأوروبية مسافة قرونٍ ، وعهود ، فليكن ذٰلك موضع اهتمام الزعماء ، والقادة ، ولينل ذٰلك كلَّ عناية ، ورعاية .

ولـٰكننا في نفس الوقت القوة الكبرىٰ في العالم ، فعندنا دين هو حاجة البشرية كلِّها ، وعندنا دعوةٌ تنقذ العالم من نهايته الأليمة التي تنتظره ، وتدنو إليه ، وعندنا الإيمان الذي يخلق الأمانة ، والشعور بالمسؤولية في النفوس ، ويخلق الدوافع القويَّة إلىٰ عمل الخير ، وخدمة الإنسانيَّة ، وقد حرمتها الأمم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كلَّ الأسباب ، والوسائل لعمل

الخير ، وخدمة الإنسانية ، فأصبحت هـٰذه الوسائل ضائعةً بل متَّجهة إلىٰ القضاء علىٰ المدنية ، والإنسانية ، وحاجة أوربا في اقتباس هـٰذا الإيمان منا أشدُّ ، وأعظم من حاجتنا إلىٰ الاقتباس من صنائعها ، وعلومها ؛ لأنَّ هـٰذا الإيمان هو الأساس ، وهو الموجِّه ، وهو الضابط ؟ وعندنا شريعة تحلُّ جميع المشكلات والأزمات التي يواجهها المجتمع البشري في القرن العشرين ، وعندنا ـ أولاً وآخراً ـ نبيٌّ أرسل رحمةً للعالمين : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٦] .

ألا فلنتجه بهـٰذه الدَّعوة إلىٰ أوربا الحائرة التائهة بإخلاصٍ ونزاهةٍ ، وتوجُّعٍ وشفقةٍ ، وبقوةٍ ، وثقةٍ ، وإيمانٍ ، ولننظر إلىٰ أنفسنا كدعاةٍ ، ومنقذين ، مبشرين ، ومنذرين ، ونستخدم هـٰذه القوَّة الجبارة في تغيير مصيرنا ، ومصير العالم ، ولنحتلَّ بفضلها مكانة الزعامة ، والقيادة في ركب الإنسانية ، ومصافِّ الأمم بعدما عشنا زمناً طويلاً في مؤخر الرَّكب ، وفي صفِّ التلاميذ ، والحاشية ، ونتجه بهـٰذه الدَّعوة المقدَّسة المنصورة التي إما أنْ تُقبل ، فترفع ، وتعزَّ ، وأما أنْ تُرفض ، فتهلكَ ، وتقهر ، هـٰذه الدعوة التي أوجب ٱلله علىٰ نفسه نصرها ، ونصر رجالها .

ولنتجه بهٰذه الدَّعوة إلىٰ مجالاتٍ مهجورةٍ ، وكنوزٍ مطمورةٍ في آسيا ، وفي أفريقية ، إلىٰ الشعوب التي ملكت الوسائل ، والعلم ، والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة ، والسواعد القوية ، وجهلت الدِّين ، والغايات الصالحة ، والمبادئ الفاضلة ، وهي مستعدَّةٌ لقبول هٰذه الدَّعوة ، وإذا قبلت هٰذه الدعوة ، وفقهتها ، وأخلصت لها ؛ تغيَّر مجرىٰ التاريخ من جديد ، كما تغير في العهد الأول بإسلام الفرس ، والترك ، والدَّيلم ، وفي العهد الأوسط بإسلام التتار ، والمغول .

ألا إنَّنا في حاجة إلىٰ ثورةٍ ، إلىٰ ثورةٍ في التفكير ، والمنهج !

✍ ✍ ✍

بين الجِبَايَةِ والهِدَايةِ [1]

الدُّول ، والحكومات قسمان : دولةٌ شعارها الجباية ، ودولةٌ شعارها الهداية ، وكلٌّ لها طابعٌ خاصٌّ ونفسيَّة خاصَّةٌ ، ورجال ممتازون ، ولكلٍّ نتائج متميِّزة .

فميزان الأشياء ، ومناط الأحكام في دولة الجباية هو تضخُّم الميزانية ، وكثرة الدَّخل ، والإيراد ، ورفاهية رجال الحكومة ، واحتفال الحضارة ، وزهو المدنيَّة ، وإن كان ذٰلك بامتصاص دماء الفقراء ، وشقاء الفلاَّحين ، والعَمَلة ، والضرائب المُجحفة ، والمكوس المُرهقة ، فلا يُعنىٰ هٰذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد في مواردها ، وماليَّتها ، وبما يهيِّيء لها أسباب الفخار ، والزينة ، والأبَّهة ، وبما يهيِّئ للأمراء ، والوزراء ، وأبنائهم ، وأبناء أبنائهم ، والمتصلين

---

(١) أصل هٰذا المقال رسالة شخصية وجهت إلىٰ ملك من ملوك العرب ، ثم طُبعت كرسالةٍ عامة موجَّهة إلىٰ جميع المسلمين ، وقادة الرأي ، والفكر في العالم الإسلاميِّ .

بهم ، ورجال الحكومة ، وأُسرهم ، وخدمهم أسباب التَّرف ، والتنعُّم ، والبذخ ، وبما يبنون به قصوراً فاخرة ، ويشترون به أملاكاً واسعة في داخل البلاد ، وخارجها .

تُغفل هـٰذه الحكومة تربية الجمهور الدِّينية ، والخلقية ، وتعطِّل الحسبة ، والرَّقابة علىٰ الأخلاق ، والنزعات ، وتتغافل عن كلِّ ما ليس بسبيلها ، وما لا يجرُّ عليها فائدةً ماليَّةً ، أو قوَّةً سياسيةً ، وقد تبيح منكراً ، أو محرَّماً إذا كانت تجني منه نفعاً ، وتحرِّم مباحاً إذا كانت تخاف منه خطراً سياسياً ، أو خسارةً مالية ، ولا يزال الجشع والنَّهامة للمال تدفعها ، وتزيِّن لها خطَّتها ؛ حتىٰ تفرض ضرائب علىٰ العبادات ، وعلىٰ الموت ، والحياة ، وهـٰكذا تتحوَّل من حكومة ساهرة علىٰ مصالح الجمهور ، وراحتهم ، ومن مربِّيَةٍ ، وحارسةٍ للأمة ، إلىٰ شركةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ لا يهمُّها إلا جمع الأموال ، وزيادة الأرباح .

أمَّا الدولة التي شعارها الهداية ؛ فمهمَّتها الدَّعوة إلىٰ ٱلله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومعيارها تحسُّن أخلاق الجمهور ، وسمُوُّ روحهم ، وتحلِّيهم بالفضائل ، وإقبالهم علىٰ الآخرة ، وزهدهم في الدنيا ، والقناعة في المعيشة ، واجتنابهم المحرَّمات ، والمعاصي ، وتنافسهم في الخيرات ، ولو كان ذٰلك علىٰ حساب ميزانيَّتها ،

وخسارة ماليَّتها ، فتنصب الوعَّاظ ، وترسل الدُّعاة ، وتشجِّع الحِسْبة ، وتمنع الخمور ، وتنكر علىٰ الفجور ، وتحرِّم الملاهي ، والمعازف ، وتطارد المستهترين الخلعاء ، وتمنع كلَّ ما يفسد علىٰ الناس عقيدتهم ، وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتغصُّ في حكمها المساجد ، وتقفر الحانات ، ويزدهر الدِّين ، والتَّقوىٰ ، وتضمحلُّ المعاصي والجنايات ، ويقوم أهل الدِّين والصلاح ، وينشطون ، ويتحمَّسون ، ويتوارىٰ الفجَّار ، والملحدون ، وينكمشون . ويكون ما وصفه ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج : ٤١] .

يمتاز جهاز حكومة الهداية بأسره عن جهاز حكومة الجباية بأسره ، يمتاز عنه في النَّزعات ، والروح ، والسيرة ، والمعاملة ، والسلوك ، فنرىٰ في الأوَّل التطوُّع ، والاحتساب ، وروح الخدمة ، والإيثار ، والأمانة ، والتضحية ، والوفاء ، بينما نرىٰ في رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ، ورجاله ، والاجتهاد في معاجزته ، والتفلُّت منه ، والكبر ، والتجبر ، والأثرة ، والخيانة ، والنِّفاق ، والزور ، وفشوَّ الرَّشوة إلىٰ حدٍّ يدعو الإنسان بين الركن والمقام ألَّا يبتلىٰ منهم ، فلا ينال الإنسان حقَّه من العدل ،

والراحة ، ولا يتمتَّع بحقوقه المدنية إلا إذا رضخ من ماله لهٰذا ، وقدَّم طعمة لذاك ، ويستفحل الأمر ، ويجلُّ الخطب ؛ حتىٰ لا يُرىٰ أحدٌ في هٰذه الحكومة : أنَّه خادم أمة ، وأمين حكومة ، لا يعدُّ نفسه إلا جابياً ـ ولٰكن لنفسه ، وعياله ـ قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال ، فلا يريد أن تفلته هٰذه الفرصة ، ويتخلَّف عن قافلة الجباة الشخصيِّين ، وقد اشتدَّ بها الجِدُّ ، وجدَّ بها السَّير .

لقد سبق في التاريخ أمثلةٌ لكلٍّ من حكومات الجباية ، والهداية ، أما حكومات الجباية ، فلا تحتاج إلىٰ تمثيل ، ولا إلىٰ شرحٍ ، وبيانٍ ، فإنَّها هي السائدة الفاشية في الماضي ، والحاضر ، وفي الشرق ، والغرب ، وقد جرَّبها الإنسان ، وعرفها في كلِّ عصرٍ ، أما حكومات الهداية ؛ فهي نادرةٌ جداً ، فلنضرب لها مثلاً :

بُعث محمدٌ ﷺ فدعا الناس إلىٰ الإسلام ، فالتفَّ حوله : ﴿ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ١٣ ـ ١٥] . وكان هٰؤلاء الفتيان هدفَ كلِّ قسوةٍ ، وظلمٍ ، واضطهادٍ ، وبلاءٍ ، وعذابٍ ، وقد قيل لهم من قبل :

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٢ ـ ٣] ، فصمدوا لكلِّ ما وقع لهم ، وثبتوا كالجبال ، وقالوا : ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، حتىٰ أذن ٱلله في الهجرة ، ولم تزل الدَّعوة تشقُّ طريقها ، وتؤتي أكلها ؛ حتىٰ قضىٰ ٱلله أن يحكم رجالها في الأرض ، ويقيموا القسط ، ويُخرجوا الناس من الظلمات إلىٰ النور ، ومن عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله وحدَه ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، فقد عرف : أنَّهم إذا تولَّوْا ، وسادوا ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [الحج : ٤١] .

وهٰكذا جاءت الدَّعوة بالحكومة كما تأتي الأمطار بالخِصْب ، والزَّرع ، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة ، والثَّمر ، فلم تكن هٰذه الحكومة إلا ثمرةً من ثمرات هٰذه الدَّعوة الإسلاميَّة ، ولم تكن هٰذه العزَّة ، والقوَّة إلا نتيجة ذٰلك العذاب الذي تحمَّلوه من قريشٍ ، وغيرهم ، وذٰلك الهوان الذي لقوه في مكَّة ، وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزَّةٍ ، وشوكةٍ ، ورجالٍ ، وأموالٍ ، وكنوزٍ وخزائن ، وجبايةٍ ، وخراجٍ ، ورفاهةٍ ، ونعيمٍ ، وكان المجال واسعاً جداً لجمع الأموال ، وحكم

الرجال ، ورفاهية الحال إذا اختاروا طريق الملوك والسَّلاطين في فرض الضرائب الكثيرة ، والأتاوات المتنوعة ، والمكوس الجائرة .

التفت القوم ؛ فإذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق ـ طريق الجباية ، وطريق الهداية ـ هنالك سمعوا هاتفاً يقول : ويحكم ! إنَّ محمداً ﷺ لم يبعث جابياً ، وإنَّما بعث هادياً ، وأنتم خلفاؤه » فلم يتردَّدوا في إيثار جانب الهداية على جانب الجباية ، واتَّخاذ الدَّعوة والهداية شعاراً ، ومبدأ لحكومتهم ، فكان ذٰلك .

لقد علموا : أنَّهم لو آثروا جانب الجباية ، وأطلقوا أيديهم في أموال الناس ، واسترسلوا في النَّعيم ، ورتعوا في اللذات ؛ لم يحل بينهم وبين ذٰلك أحدٌ ، ولم يقف في سبيلهم واقفٌ ، ولٰكنَّهم علموا : أنَّهم لو فعلوا ذٰلك ؛ فقد غشُّوا إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولٰئك الذين لم يعرفوا إلا الجهادَ ، والتَّعب ، والجوع والسَّغَب ، ولقد وصلوا إلى الحكومة على جسرٍ من متاعبهم ، وإيثارهم ، أفيجوز لهم أن يستغلُّوها لمصلحتهم ، وشهواتهم ، وأبنائهم ، ويتمرَّغوا في النعيم ، ويُسرفوا في الأكل ، والشرب ؟ لقد ظلموا إذاً عثمان بن مظعون ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن

عمير ، وأنس بن النَّضْر ، وسعد بن معاذ ، وكثيراً مِنْ رفقتهم الذين لم يروا شيئاً من الفتوح ، والغنائم ، ولم يشبعوا أياماً متواليةً ، وقف القوم ، ولم يطب لهم الأكل ، والشرب ، وأرادوا أن يلحقوا بإخوانهم ، ولم يأخذوا من الدُّنيا إلا البلاغ .

تأسَّست دولة الإسلام ، وفتحت فارسُ ، وبلادُ الرُّوم ، والشام ، ونقلت إلىٰ عاصمة الإسلام ـ المدينة المنورة ـ كنوزُ كسرىٰ ، وقيصر ، وانصبَّت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال علىٰ رجالها مِنْ آموال هاتين الدولتين ، وطُرَفِهَا ، وزخارفها ما لم يَدُرْ قطُّ بخلدهم ، وقد انقضىٰ علىٰ إسلامهم ربع قرن ، وهم في شدَّة ، وجهدٍ من العيش ، وفي جشوبة المطعم[1] ، وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس إلا ما يقيهم من البرد ، والحرِّ ، فإذا بهم اليوم يتحكَّمون في أموال الأباطرة ، والأكاسرة ، فإذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرىٰ ، وينام علىٰ بساط قيصر ؛ لفعل ، لقد كانت وٱلله هـٰذه محنةً عظيمةً ، تزول فيها الجبال الرَّاسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ،

---

(١) جَشْبُ الطعام يجشُب ، جشابةً ، وجشوبةً ؛ غلظ مأكله ، وخشُن . (قاموس) .

وتعمش لها العيون ، ولـٰكنَّهم سرعان ما فطنوا : أنهم ما وقفوا بين الفقر ، والغنىٰ فحسب ، بل إنَّهم خُيِّروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم ، وإمامتهم ، ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم ، فلا يطمعوا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا علىٰ روح هـٰذه الدَّعوة النبويَّة ، وعلىٰ سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المُخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكاً عربياً عظيماً علىٰ أنقاض الدولة الروميَّة ، والفارسيَّة ، وينعموا كما نعم ملوكها ، وأمراؤها من قبل ، فقد ورثوا إمبراطوريتين : الفارسية ، والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين . فإذا كان كسرىٰ يترفَّه بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبذخ بموارد الرُّوم فقط ، فهـٰذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفَّه بموارد الإمبراطوريتين ، ويبذخ بذخاً لم يبذخه أحدهما .

كان له ، ولأصحابه كلُّ ذٰلك بكلِّ سهولة ، ولـٰكنَّهم سمعوا القرآن يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

وكأنَّهم يسمعون نبيَّهم ﷺ يقول قبل وفاته :

« فوٱلله لا الفقر أخشىٰ عليكم ، ولـٰكن أخشىٰ أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت علىٰ من كان قبلكم ، فتنافسوها كما

تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم ! »[1] .

فهتفوا عن آخرهم قائلين :

اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار ، والمهاجرة ! وهٰكذا حافظوا علىٰ روح الدَّعوة الإسلاميَّة ، وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدَّعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هٰذا التيار الجارف ، الذي سال قبلهم بالمدنيَّات والحكومات ، والشعوب والأمم ، وسال بالمبادئ ، والأخلاق ، والعلوم ، والحكم .

ما زال الناس يعدُّون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم ، وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ، ووصولهم إلىٰ الشطِّ الثاني من غير أن يصابوا في نفسٍ ، أو مالٍ ، أو متاعٍ حادثاً غريباً من أغرب ما وقع في التاريخ ، إنَّ الحادثَ لغريب ، ولٰكن أشدَّ منه غرابةً ، وأدعىٰ للعجب : أنَّ المسلمين في عهد الخلافة الراشدة ، وعصر الفتوح الإسلامية الأولىٰ خاضوا بحر مدنيَّة الروم ، وفارس ؛ وهو مائج هائجٌ ، وعبروه ولم يفقدوا شيئاً من أخلاقهم ، ومبادئهم ،

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجزية والموادعة (٣١٥٨) ومسلم ، كتاب الزهد (٢٩٦١) (٦) .

وعاداتهم ، ووصلوا إلىٰ الشطّ الثاني ، ولم تبلَّ ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون ، وأمراء الدولة الإسلاميَّة من أصحاب النبيِّ ﷺ محتفظين بروحهم ، ونفسيَّتهم ، وزهدهم ، وبساطتهم في المعيشة ، وتخشُّنهم في أوج الفتوح الإسلاميَّة .

حكىٰ الطبريُّ دخول الهرمزان المدينة ، ومواجهته لعمر ، رضي ٱلله عنه ؛ قال : هيِّؤوا الهرمزان في هيئته ، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ، ووضعوا علىٰ رأسه تاجاً يُدعىٰ الآذين مكلَّلاً بالياقوت ، وعليه حليته كيما يراه عمر ، والمسلمون في هيئته ، ثمَّ خرجوا به علىٰ الناس يريدون عمر في منزله ، فلم يجدوه ، فسألوا عنه ، فقيل : جلس في المسجد لوفدٍ قدموا عليه من الكوفة ، وانطلقوا يطلبونه في المسجد ، فلم يروه ، فلما انصرفوا مرُّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلدُّدكم ؟ تريدون أمير المؤمنين ؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد متوسِّداً برنسه ، وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس ، فلمَّا فرغ من كلامهم ، وارتفعوا عنه ، وأخلوه ؛ نزع برنسه ، ثم توسَّدَهُ ، فنام .

فانطلقوا ومعهم النَّظارة ؛ حتىٰ إذا رأوه ؛ جلسوا دونه ، وليس في المسجد نائمٌ ولا يقظان غيره ، والدرة في يده معلقةً ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ! وجعل

الوفد يشيرون إلىٰ الناس : أن اسكتوا عنه ، وأصغىٰ الهرمزان إلىٰ الوفد ، فقال : أين حرسُه ، وحجّابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ، ولا حاجبٌ ، ولا كاتبٌ ، ولا ديوان ! قال : فينبغي له أن يكون نبيّاً . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ! وكثر الناس ، فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوىٰ جالساً ، ثم نظر إلىٰ الهرمزان ، فقال : « الهرمزان ؟ » قالوا : نعم ! فتأمَّله ، وتأمَّل ما عليه ، وقال : أعوذ بٱلله من النار ، وأستعين بٱلله ! وقال : الحمد لِلَّهِ الذي أذلَّ هـٰذا ، وأشياعه ، يا معشر المسلمين ! تمسَّكوا بهـٰذا الدين ، واهتدوا بهدي نبيِّكم ، ولا تبطرنّكم الدنيا ؛ فإنها غرَّارة ، فقال الوفد : هـٰذا ملك الأهواز ، فكلِّمْهُ ، فقال : لا ، حتىٰ لا يَبْقَىٰ عليه من حليته شيءٌ ! فرمىٰ عنه بكلِّ شيءٍ عليه إلا شيئاً ليستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً ، فكلَّمه (١) .

ويصف ضرار بن ضمرة عليَّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ في خلافته بعد وفاة عليٍّ لمعاوية ، يقول : « إنه ليستوحش من الدُّنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان وٱلله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام

---

(١) تاريخ الطبري ج : ٤ ص : ٣٧ .

ما جشب[1] ! كان وٱلله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، يعظِّم أهل الدِّين ، ويحبُّ المساكين ، لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بٱلله لقد رأيته في بعض مواقفه ؛ وقد أرخىٰ الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه ، قابضاً علىٰ لحيته ، يتململ تململ السَّليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأنّي أسمعه ؛ وهو يقول : « يا دنيا ! أَبِيْ تعرَّضت ، أم لي تشوَّفت ؟ هيهات هيهات ! ! غرِّي غيري ! قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ! آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ! »[2] .

كان شعار الدَّولة الإسلامية الأولىٰ الهداية ، والدَّعوة إلىٰ ٱلله ، وخدمة الناس ، فكانت الدولة تنفق أموالاً عظيمةً في سبيل الأخلاق ، والدِّين ، وكانت إذا خُيِّرت بين أرواح الرجال ، ومبالغ من المال اختارت الأرواح ، وخسرت الأرباح ، وتطيب بذٰلك نفساً ، وتقرُّ به عيناً ، وإذا كان عكس ذٰلك ، فكسبت الأموال ، وخسرت الرجال ؛ حزنت لذٰلك ،

---

(١) ما جشب : ما غلظ ، وخشن .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ج١ .

وحزن المسلمون كحزنهم علىٰ مُلْكٍ زائلٍ ، وسلطان راحل ، وقد فضَّل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يدخل المجوس والنصارىٰ في الإسلام ويُعْفَوْا من الجزية ، فيخسر بيت مال المسلمين مقداراً عظيماً من المال ، ويكسب الدِّينُ الإسلاميُّ والأمَّة الإسلاميَّة رجالاً يتخلَّصون من النار ، وإذا كسب ، وربح بيت المال علىٰ حساب الإسلام ؛ حزنوا حزناً شديداً .

حدَّث الطبري عن زيادة بن الزبيدي ، قال : « جمعنا في مصر ما في أيدينا من السبايا ، واجتمعت النَّصارىٰ ، فجعلنا نأتي بالرجل ممَّن في أيدينا ، ثم نخيِّره بين الإسلام ، وبين النصرانية ، فإذا اختار الإسلام ؛ كبَّرنا تكبيرةً هي أشدُّ من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه إلينا . وإذا اختار النَّصرانية ؛ نخرت النصارىٰ ، ثم حازوه إليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذٰلك جزعاً شديداً ؛ حتىٰ كأنَّه رجلٌ خرج منَّا إليهم »[1] .

وهٰكذا انتشر الإسلام ، وانتشرت الأخلاق الفاضلة في عقود من السنين من أقصىٰ الشرق إلىٰ أقصىٰ الغرب ، وتغلغلت الدَّعوة الإسلاميَّة في أحشاء المجتمع البشريِّ ، لم

---

(١) تاريخ الطبري : ج٤ ص : ٢٣٧ .

يتمتع العالم الإسلاميُّ بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين ، وبضعة شهور ، ولـٰكنَّه بحرصه علىٰ الدَّعوة ومحافظته علىٰ شعار الهداية ، وسيرة خلفاء الأنبياء - عليهم السلام - تمكن من التأثير في القلوب ، والعقول ، وقلب تيار المدنيَّة ، وإظهار الدِّين ، وإخماد الكفر ، والفسق ، والقضاء علىٰ رسوم الجاهلية ، ما لم تتمكَّن منه الدُّول الإسلامية طويلة الأعمار ؛ لتراوحها بين الهداية ، والجباية ، وتفضيلها الجباية في أكثر الأحيان علىٰ الهداية .

وكانت المدن الإسلامية الكبرىٰ ، وعواصم الإسلام مركز دعوةٍ ، وهدايةٍ ؛ بحيث إذا دخلها الإنسان ؛ عرف : أنَّه يمشي في مركز الإسلام ، ويتنفَّس في جوِّه ، فيرىٰ الحدود قائمةً ، وأحكام الشَّرع نافذةً ، ولا يجد أحداً يتهاون في أمرٍ من أمور الدين ، ويستخفُّ به ، أو يجاهر بإثمٍ ، ومعصيةٍ ، ولا يرىٰ بدعةً ، ولا فجوراً ، ولا دعارةً ، ولا خدعةً ، ولا يسمع برشوةٍ ، ولا خيانةٍ ، ولا ما ينافي روح الإسلام ، ويسمع الدَّعوة إلىٰ ٱلله ، وإلىٰ الدار الآخرة ، وإلىٰ الفضيلة ، والتقوىٰ ، واتِّباع الكتاب والسنة ، والاجتناب من الشرك ، والبدعة ، والتمسُّك بفضائل الدين في كلِّ مكان ، ويرىٰ العمل بذٰلك في الطُّرقات ، والمجامع ، وبيوت الناس ، ودواوين الحكومة ، فيتشبَّع بروح الدين ، ويتضلَّع إيماناً ، وحماسةً ،

وفقهاً في الدين ، ومعرفةً بأحكامه ، وشرائعه وحبّاً لأهله ، فلا يخرج إلا وقد استفاد الإيمانَ ، والعلمَ ، والتمسُّكَ في الدين ، والثِّقة برجاله ، وممثليه .

وإذا دخلها أجنبيٌّ ، أو حديث عهدٍ بالإسلام ؛ عرف مزايا الحياة الإسلامية ، وفضل حكومة الإسلام ، وآثر الإقامة فيها ، وكره أن يفارقها ، ويعود إلىٰ دار الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار .

أما الحَرَمانِ ؛ فقد كانا في حكومة الإسلام ـ المؤسَّسة علىٰ مبدأ الهداية ـ مدرسة الدين ، ومهد الحضارة الإسلاميَّة ، تتمثل فيهما الحياة الإسلامية بكمالها ، وجمالها ، ويأتي إليها المسلمون من كلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم الإسلاميِّ ، ومن كلِّ فجٍّ عميقٍ ، فيشهدون منافع لهم ، ويتفقَّهون في الدِّين ، وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم ، ويحتجُّون في بلادهم بما رأوه في الحرمين ، فيكون ذٰلك حجَّةً لمحافظة الحجاز علىٰ الدِّين ، والسنَّة ، وحرص حكومتها علىٰ تمثيل الحياة الإسلاميَّة في مركز الإسلام ، ومنبعه .

ثمَّ أتىٰ علىٰ المسلمين حينٌ من الدَّهر نسوا : أن الحكومة في الإسلام لم تكن إلا جائزة الدَّعوة ، والجهاد في سبيلها ، ولولا رسالة محمد ﷺ ودعوته إلىٰ ٱلله ، وما لقي في مكة ، والطائف من قريش ، والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في

غار ثور ، والرباعية المكسورة يوم أحدٍ ، ولولا ما صُنع بحمزة يومئذٍ ، ولولا قتلىٰ بئر معونة ، ومصلوب الأنصار [(١)] ؛ لما دانت الدنيا للعرب ، ولا كانت دمشق ، ولا بغداد ، ولا كان لبني مروان أن يجبوا خراج الرُّوم ، وفارس ، ولا كان للرَّشيد أن يقول لسحابة مرَّت به : « أمطري حيث شئت ؛ فسيأتيني خراجُك » .

أسَّس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم علىٰ مبدأ الجباية السياسية ، وأهملوا الدَّعوة إلىٰ ٱلله ، وإلىٰ دار السلام ، وعطَّلوا الحدود ، وأبطلوا الحسبة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأضاعوا الصلاة ، واتَّبعوا الشبهات ، ولم تعد مراكز الإسلام مدرسةً للدين ، ومرآةً لمدنيته واجتماعه ؛ بل أصبحت تغرس الشكَّ ، والنفاق في قلوب الوافدين ، وتزعزع عقيدتهم ، وثقتهم بالدِّين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يكتسبون منها استخفافاً بشعائر الإسلام ، ورقَّةً في الدين ، ووهناً في

---

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك الذي قتله بنو الحارث بن عامر ، وبضَّعوا لحمه ، وحملوه علىٰ جِذْعٍ ، وهو القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
علىٰ أيِّ جنب كان في ٱلله مصرعي

العمل ، وسوء ظنٍّ بممثلي الإسلام ، ورجعوا يحتجُّون بالأوضاع الفاسدة في مراكز الإسلام ، وبالفوضىٰ الدِّينية ، فكانت داهية عظيمة علىٰ رجال الإصلاح والدَّعوة في الأقطار الإسلامية ، وفتنة كبيرة .

ليس العالم الإسلامي اليوم بأشدَّ افتقاراً إلىٰ شيء منه إلىٰ حكومة تمثله تمثيلاً صحيحاً ، وتقوم علىٰ أساس الدَّعوة ، والهداية ، والنَّصيحة ، والخدمة ، فإنَّ الإسلام لا يؤثر في عقول الناس ، ولا يشفي المتفحصين ؛ حتىٰ تكون له رقعة في الأرض ، تتمثل فيها حياتُه ، وتتجلَّىٰ فيها مدنيَّته ، واجتماعه ، وتظهر فيها نتائج دعوته ، وتعاليمه ، فإذا كان ذٰلك ولو في رقعةٍ صغيرة ؛ كان علىٰ الإسلام إقبالٌ عظيم لم يُعهد من قرون .

وليس العالم الإنسانيُّ بأقلَّ افتقاراً من العالم الإسلاميِّ لمثل هٰذه الحكومة التي شعارها الهداية ، والإصلاح ، لا الجباية ، والكفاح ، فإن الإنسانية العليلة جريحةٌ ، لا يسعفها اليوم إلا قيام هٰذه الحكومات التي تؤسَّس علىٰ أساس الفضيلة ، والدِّين ، واحترام الإنسانية ، وإيثار الأرواح علىٰ الأرباح ، والأخلاق علىٰ الأعلاق[1] ، وكسب الرجال

---

(١) **الأعلاق** : جمع (عِلْق) وهو النفيس من كل شيءٍ يتعلَّق به القلب .

علىٰ كسب الأموال ، فإذا تأسَّست هـٰذه الحكومة ـ مهما كانت صغيرةً ، ومهما كانت مواردها ضعيفةً ـ كان ذٰلك حادثاً غريباً يستحقُّ كلَّ تنويهٍ ، وإشادةٍ ، وقام كبار السياسيين ، وأصحاب اليراع ، وقادة الفكر يشيرون إليها بالبنان ، ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات ، وأصبح الناس يأوون إليها كما يأوي الغرقىٰ إلىٰ جزيرةٍ في البحر ، لينعموا في ظلِّ حكومتها ، وينفضوا عنهم غبار الظلم ، والفتن ، ويتنفَّسوا من متاعب المدنيَّة المعقَّدة المزوَّرة ، والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هـٰذه الحكومة غرَّةً في جبين الدهر ، وشامةً بين الحكومات والدُّول .

إنَّ الإنسانيَّة قد جربت حكومات الجباية علىٰ اختلاف أنواعها ، وأسمائها من شخصيةٍ ، وديمقراطية ، ورأسماليةٍ ، واشتراكيةٍ ، وشيوعيةٍ ، فوجدتها بنات عَلاَّت[1] ، لا تختلف في أصلها ، ومبدئها ، وروحها ونزعتها ، وقلَّبتها علىٰ كل جانب ، فلم تر منها إلا شراً ، ومرَّاً ، ولم تر اختلاف الأسماء يغني عن شيءٍ ، وإذا تأسَّست حكومةٌ جديدة باسمٍ جديدٍ ؛ ، نادىٰ لسان الحقيقة في لفظ أبي العلاء المعري :

---

(١) أي : الأم مختلفة والأب واحدٌ .

ألا إنمـــا الأيـــام أبنـــاء واحـــد
وهٰـــذه الليـــالـــي كلُّهـــا أخـــوات
فـــلا تطلبـــن مـــن عنـــد يـــومٍ وليلـــةٍ
خـــلاف الـــذي مـــرَّت بـــه السَّنـــوات

وإذا ضُمَّت إلىٰ هٰذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومةٌ جديدة لا تختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلمٌ ، أو يديرها عددٌ من المسلمين ، لم تكن بدعاً ، ولم تكن شيئاً طريفاً ينوَّه به ، أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فإنَّ هنالك حكومات تفوق هٰذه الحكومة عشرات من المرَّات في طول مساحتها ، وضخامة ميزانيتها ، وكثرة إنتاجها ، وإصدارها ، وفي جيشها ، وأساطيلها وبوارجها الحربية ، وعدد الطائرات ، وكثرة المصانع ، ورقي الصناعة ، والتجارة ، واحتفال المدنية ، والحضارة ، وحسن الإدارة ، وانتشار العلم في طبقات الشعب وقلَّة الأميَّة ، إلىٰ غير ذٰلك ممَّا تمتاز به الحكومات الأوربية .

إنَّ قيام دولةٍ للمسلمين في بقعةٍ من بقاع الأرض فرصةٌ سعيدةٌ نادرةٌ لا تسنح في كل حين ، ومثل هٰذه الفرص ـ كما يعرف المطلع علىٰ السنن الإلٰهية وعلىٰ تاريخ الأديان والدَّعوات الإصلاحية ـ قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر ، وفي قصرها كوميض البرق في ليلة مظلمة ، وتكون

امتحاناً عظيماً لرجالها ، كيف يستخدمون هٰذه الفرصة لدعوتهم ، ومبادئهم الدينية علىٰ حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ، ولذائذهم ؟ ! فإذا انتهزوا هٰذه الفرصة ، وعرفوا قيمة الوقت ، وأحسنوا تمثيل هٰذه العقيدة ، والدين الذي ينتسبون إليه ، وحسن ظنُّ الناس بهم ، وصدَّقوهم فيما يقولون ، فقد خدموا دينهم ، وأنفسهم خدمةً باهرة ، وإن كان غير ذٰلك ، فأساؤوا استعمالها ، واستغلُّوها لمصالحهم الشخصية علىٰ حساب الدَّعوة الدينية ، ورجالها المخلصين وجهودهم في سبيل نشر هٰذه الدَّعوة ، وقيام هٰذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الأموية ، والعباسية ، ودولٌ كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة ، وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدَّعوة - التي وصلت أسبابها بأسبابهم - دَوْرَها ، وما يعلم أحد متىٰ يعود هٰذا الدَّور ، وهل يعود أو لا ؟ ! فقد التاريخ أمماً ، وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها ، وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهىٰ دورها القصير ، أو الطويل ، فوقفت مع المتفرجين المنعزلين ، وبقيت تنتظر دورها في حلبة الأمم ، وتعضُّ علىٰ تفريطها ببنان الحسرة ، والندم .

هٰذا وإلىٰ الحكومات الإسلامية ومن كان علىٰ رأسها أن ينتهزوا الفرصة ، ويحرزوا قصب السبق ، ويبلغوا بهمتهم ، وعنايتهم إلىٰ حيث لا يبلغ بما آثرهم ٱلله من حولٍ ، وطول ،

ونفوذٍ ، وسلطان ، وفرصٍ لا تتأتىٰ لغيرهم ، ولهم أن يصلوا في خدمة هٰذا الدِّين ، وإعادة شبابه ، وإصلاح المجتمع ، وتغيير اتجاهه ، ومن الجاهلية إلىٰ الإسلام في يومٍ واحد ـ إذا أرادوا بذٰلك ، وصحَّت عزيمتهم ، وصدقت نيَّتهم ـ ما لا يصل إليه المصلحون ، والمؤلفون العاملون في أعوامٍ ، وقرون ، وينالوا من رضا ٱلله وثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثيرٌ من العباد ، والمتَّقين ، وعباد ٱلله الصَّالحين .

وما أطلق الناس علىٰ عمر بن عبد العزيز لقب المجدِّد الكبير ، والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرىٰ الحكومة من الجباية إلىٰ الهداية ، والإصلاحات التي قام بها ، وبرجولته ، وعصاميته في سبيل مبدئها ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيمٍ زائلٍ ، ومتاعٍ فانٍ ، وأنواعٍ من لباسٍ ، وطعام ، ودوابَّ ، وأنعامٍ ـ كان لابد أن يتركها يوماً من الأيام ـ لو وزن ذٰلك كله بما اكتسب من نعيمٍ لا ينفد ، وقرَّة عين لا تنقطع ، وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه ، والالتحاق بحزبه ، وما جعل ٱلله له من لسان صدقٍ في الآخرين ؛ لرجح ما اكتسب رجحاناً واضحاً ، وعدَّ من كبار الأذكياء ، وعقلاء العالم .

✍ ✍ ✍

دَعوَتَان مُتنَافسَتَان

لـم تـزل فـي الـدنيـا منـذ وُجـدت دعـوتـان متنـافستـان متصارعتان : دعوةٌ تدعو إلىٰ اتِّباع النفس ، وتحكيمها ، وإلىٰ حرية الإنسان المُطلقة ، التي لا تقف عند حدٍّ ـ إلا إذا اضطرت إلىٰ ذٰلك ، وإن كان في غضون هـٰذه الحرية ، وأثنائها مئاتٌ ، وآلافٌ من أنواع الرقِّ ، والعبودية ، ودعوة تقول : إنَّ الإنسان عبد ٱلله ، مكلَّفٌ ومسؤول أمامه ، وتدعو إلىٰ اتِّباع الوحي من ٱلله ، وشرائع الأنبياء .

الدَّعوة الأولىٰ هي « الجاهلية » في مصطلح الإسلام الواسع ، والدَّعوة الثانية هي دعوة الإسلام نفسه ، واقتسمت هاتان الدعوتان أمم العالم ، وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما ، وتمثيلهما من حينٍ إلىٰ حين ، وليس تاريخ الأديـان ، والعقـل ، والأخـلاق إلا حكـايـة هـٰـذا الصـراع المستمرِّ ، والنزاع الدائم ، وذٰلك أكبر صراع ، وأوسعه شهده العالم في عمره الطويل .

ومنذ ثلاثة عشر قرناً ونصف اختار ٱلله لقيادة الدَّعوة

الثانية ـ الإسلام ـ أتباع محمد ﷺ وكتب لهم الإمامة في ذٰلك إلىٰ يوم القيامة .

كذٰلك لم تزل تمثِّل الدَّعوة الجاهلية ، وترأسها أممٌ ، وحضاراتٌ جاهليَّة في عصورها ، ودوائرها ، حتىٰ قضىٰ ربُّك أن تتولىٰ زعامتها ، وتحمل رايتها أمم أوربا النَّصرانية قبل نحو قرنين ، وإنَّما رشَّحها لهٰذا المنصب ، وجعلها حاملةً لرسالة الجاهلية في العالم مجاهدةً في سبيلها سوءُ تمثيل النَّصرانية المحرفة للدين المطلق ، ورهبانيتها ، وعجزها عن حلِّ القضايا الإنسانيَّة ، والمعضلات البشرية ، ثم سوء تمثيل علمائها ، وكهنتها ، وقسسها للنَّصرانية نفسها ، وبما حالوا بين أمَّتهم ، وبين الرقيِّ ، والتقدُّم ، وبما أذاقوا العلماء الأحرار ، والمكتشفين من أنواع العذاب التي تقشعر لها الجلود ، وتتفطَّر منها مرارة الإنسان ممَّا حفظه لنا تاريخ الصراع بين الدِّين والمدنيَّة ، والدِّين والعقل ، والدِّين والعلم في أوربا ، زد إلىٰ ذٰلك كلِّه تهوُّر الثائرين علىٰ النظام القديم ، وطيشهم ، فكان عاقبة ذٰلك أنْ أصبحت أمم أوربا ـ وهي المتحفِّزة للنهوض ، الطامحة إلىٰ الرِّقي ـ تبغض الدين مطلقاً ، وتتحرَّر من كلِّ نظامٍ قديمٍ ، وتُعادي كلَّ دعوة دينية خُلقيَّةٍ ، وترىٰ فيها حجر عثرة في سبيلها ، وفي أصحابها عدواً لدوداً للرقيِّ الإنسانيِّ .

وعلىٰ كلٍّ تحولت أمم أوربا جاهليةً ماديةً محضة ، وكان هـٰذا التحوُّل من أتعس الحوادث التي وقعت في التاريخ ، والذي قد جرَّ علىٰ الإنسانية شقاءً طويلاً ، وويلاً عظيماً ، ولـٰكنَّه كان واقعاً لا محالة لأسباب طبعيَّةٍ عقليَّةٍ .

وتقدَّمت أمم أوربا الفتية المتحمِّسة لغزو العالم ، وفتحه ، وقد أخذت له أهبته ، وأعدَّت له عدَّته المضادَّة لها ، وهم المستولون علىٰ أجمل رُقَع العالم المتمدِّن المعمور ، وعلىٰ أهم بقاع الأرض سياسياً ، وجغرافياً ، وأخصبها ، وأثراها اقتصادياً ، وكان بديهياً أن يقع أوَّل صراعٍ ، وأكبره بين هاتين الفئتين ، فكان ذٰلك !

كان ذٰلك والمسلمون منذ أمدٍ بعيدٍ قد فقدوا روح الرِّسالة التي كانوا يحملونها ، والتي قد أصبحوا بقوَّتها سيلاً جارفاً جباراً لا تقاومه الحشائش ، ولا تقف في وجهه الصخور ، وقوَّة المسلمين وروحهم دائماً من الرِّسالة والدعوة ، فأضحوا لا يحملون رسالة الإسلام إلىٰ العالم ، ولا يدعون دعوةً دينيَّةً تنفخ فيهم الحماسة ، والفتوة ، ويأتون لها بخوارق ومعجزات ، وتفتح لهم هـٰذه الرِّسالة قلوباً ، وعقولاً ، وتسخِّر لهم ممالك ، ودولاً ، وأصبحوا جيلاً من الناس كسائر الأجيال ، يرىٰ ما يحدث في العالم من خيرٍ ، وشرٍّ ، وما يسود

فيه من حقٍّ وباطلٍ ، هادئاً مطمئناً ، كمتفرِّجٍ ، أو كعاجزٍ ليس له من الأمر شيء .

وفقدوا الإيمان ، والحماسة الدينية ، ففقدوا القلوب التي كانوا يلقون بها عدوَّهم ، وسلاحَهم الذي كانوا يقارعون به ، فيهزمون أضعافهم في العدد والعُدَد ، وأصبحوا كسائر الناس لا يمتازون بمزيد قوَّةٍ ، ولا بزائد يقينٍ ، يألمون كما يألمون ، ولا يرجون من ٱلله ما كانوا يرجون .

وفقدوا الأخلاق ، والفضائل التي كانت لهم قوَّةً روحيَّةً ، وسلاحاً ماضياً في معترك الحياة ، دانت بها لهم الجبابرة ، ولانت بها صخور القلوب ، واستبدلوا به عيوباً ، وأدواء خلقيَّةً ، واجتماعيَّةً ، أخذوها من الأمم الجاهلية المنحطَّة التي عاشروها وسرت فيهم أيام ترفهم ، وانحطاطهم الخلقيِّ والاجتماعي ، فكانت كدابَّة الأرض تأكل مِنْسَأتهم ، وتنخر الدَّعائم التي قام عليها بناؤهم .

ونضب معينُ علومهم ، وجمدت قرائحُهم ، وعقولُهم ، وحُرموا الاجتهاد ، والتفكير ، وقوة الاكتشاف والإبداع ، ومُنِيَ علماؤهم بجمودٍ عقليٍّ ، وركودٍ علميٍّ ، لا يزيدون في ثروة العلم ، ولا يفتحون للعقل أبواباً ، ومنافذ جديدةً ، ولا ينظرون في علوم الطبيعة ، والكون ، بينما كانت أوربا تُسَخِّرُ لمصالحها قوىٰ الطبيعة ، ويكشف علماؤها عن أسرار

الكون ، ويتَّخذ عاملوها نفقاً في الأرض ، وسلماً في السَّماء .

أمَّا الأمراء ، والملوك المسلمون ؛ فقد تركوا الجهاد في سبيل ٱلله منذ قرون ، واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ، ومنافسةٍ ، وشهواتٍ ، ومطامع ؛ حتىٰ دهم الإسلامَ الزَّحفُ الصليبيُّ ، فلم يقم له إلاَّ صلاح الدين الأيوبي وبعض الأفراد المتَّصلين به ـ ومرَّت كارثة الأندلس كان لم يكن شيءٌ ، وزحف التتار ، والمغول ـ ذٰلك الجراد المنتشر ، فنهكوا قوىٰ المسلمين ، وزادوهم وهناً علىٰ وهنٍ .

هٰذه هي العوامل التي ساعدت الأوربيين في فتحهم ، وانتصرت بهم الجاهلية علىٰ الإسلام ، فكان أكبر انتصار نالته الجاهليَّة علىٰ الإسلام منذ زمنٍ طويل ، ولو تكلَّمت ؛ لقالت : اليوم انتصفتُ من عدوي ، وأخذتُ ثار الأمم التي فتحها ، والدُّول التي محاها ، والحضارات التي طمسها ، ومن اليوم أزدهرُ في بلاده ، وأخصب في نجاده ، ووهاده ، وأجري مجراي لا يسدُّ تياري شيءٌ .

لو قالت ؛ لصدقت ؛ لأن المسلمين ـ علىٰ علاَّتهم ـ كانوا أمناء لرسالة الأنبياء ، حملةً لمصابيح شرائعهم ، وحرزاً للدِّين في الدنيا ، ودرءاً للأخلاق ، والفضيلة علىٰ كلِّ حال ، وكانوا أعظم سدٍّ في وجه الجاهلية ، ويتحوَّلون إلىٰ أكبر خطرٍ عليها في كلِّ وقت .

كانت رزيئة المسلمين في هٰذه الهزيمة عظيمةً ، وخطبهم فادحاً جدًّاً ، فقد خسروا بلادهم التي كانت تفيض لبناً ، وعسلاً ، وخسروا جميع دولتهم تقريباً ، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية ، والعقلية ، وحيث أفلتوا من العبودية المادية ؛ لم يفلتوا من العبودية العلميَّة والخُلقيَّة .

ورزئوا في أخلاقهم التي أورثتهم إياها تعاليم الأنبياء ، والمحاسن التي حافظوا عليها طوال هٰذه القرون : من صدقٍ ، وأمانة ، وشجاعةٍ ووفاءٍ ، وعفَّةٍ ، وطهارة ، وكرمٍ ، وتواضع ، وتقوىٰ ٱلله في السرِّ ، والعلانية ، ومراقبة حدوده إلىٰ غير ذٰلك ، ممَّا يمتاز به اتباع الشرائع السماوية عن أهل الجاهليَّة ، وتسلَّطت عليهم بتأثير الأمم الغربيَّة العيوب الخلقية ، والمخازي البشريَّة التي ورثتها أوربا من روما ، ويونان الوثنتين ، ومن قرونها المظلمة ، ومن جاهليتها : كالنفاق ، والرِّياء ، والغدر بالعهود ؛ إذا دعت إلىٰ ذٰلك مصلحة ، والجشع الماديِّ ، والإيمان بالقوَّة وحدَها ، والاحترام للمال ، والثروة وحدَها ، وتقديم المصالح ، والمنافع علىٰ الأخلاق والفضائل .

وما كانت رزيئة الإنسانية في هٰذا الانتقال بهيِّنةٍ ، فتزلزلت مباني الأخلاق والفضيلة في كلِّ صُقْع ، وقُطر ، حدثت ثورةٌ علىٰ كلِّ نظامٍ قديمٍ ، وإن كان عادلاً ، وحسناً ،

وعمَّت الفوضىٰ في البيوتات ، والأسر ، وتغيَّر الولد للوالد ، وعقَّه ، وتركت المرأة بعلها ، وثارت عليه ، وانحلَّت عقد الأرحام ، ولم يعد الصغير يوقِّر الكبير ، ولم يعد الكبير يرحم الصغير ، وتعوَّضت القلوب من الألفة ، والمحبة الجفاءَ ، والبغضاء ، وكثر التنافس في الحياة الدنيا ، وفي الرقيِّ الماديِّ ، وفي أسباب الجاه ، والثروة ، وتولَّدت من ذٰلك ثروةٌ ، وآفاتٌ كدَّرت صَفْوَ الحياة ، وأماتت القلب ، والرُّوح ، إلىٰ غير ذٰلك من الظواهر التي تشكو منها كلُّ ديانة ، وكلُّ حضارةٍ شرقية بثَّها ، وحزنَها ، وممَّا يشترك فيه المسلمون ، وغيرهم من الشرقيين .

ثمَّ إنَّ هٰذه الأمم قد أصبحت تتحكَّم في أموال الناس ، ونفوسهم ، وأرزاقهم ، وأصبحت تملك السِّلم ، والحرب ، وأصبح العالم في حضانتها كولدٍ يتيمٍ ، أو شابٍّ سفيه لا يملك من أمره شيئاً ، فتارة تسوقه إلىٰ ساحة القتال ، وطوراً تُملي عليه الصُّلح ، وليس له في صلحٍ ، أو حربٍ يدٌ مرفوعةٌ ، أو كلمةٌ مسموعة .

ماذا عسىٰ أن يكون أثر هٰذه الهزيمة ، والرزيَّة العامَّة في نفوس المسلمين وفي نفوس بني آدم عامَّة ؟ !

أمَّا الناس عامَّةً فلكلِّ إنسانٍ أن يجيب عنه ، وسيجيبون عنه ، أما المسلمون هم أولىٰ بأن يوجه هٰذا السؤال إليهم ؛

لأنَّ منهم انتقل هـٰذا الملك الواسعُ ، والأمرُ ، والنهيُ إلىٰ الأوربيِّين ، ولأنَّ دينهم يقتضي أن يكون ظاهراً علىٰ كلِّ دين ، وأن يكونوا هم الأسوة وحدَهم للعالم ، فسيقول كلُّ مسلم لم يمت قلبه : إنَّ من الطبيعي أن تنطوي صدور المسلمين علىٰ إحنٍ ، وأحقادٍ للجاهلية ، وأن ينظروا إلىٰ كلِّ مَنْ يمثِّلها في كلِّ مكان كعدوٍّ غاصبٍ ، وغريمٍ مناسبٍ ، وأنَّ طبيعة رسالتهم ، ودعوتهم في العالم تقتضي بداهةً أن تعزل الأممُ الجاهلية من قيادة العالم ، والتأثيرِ في عقول الناس ، وتوجيه أفكارهم ، وأن تمنع من تمثيل الجاهلية في العالم ، وأن يُنزع منها سلطانُها ؛ حتىٰ لا تكون في دعوتها فتنةٌ لمفتون ، وحتَّىٰ لا تنافس الدَّعوة إلىٰ ٱلله دعوةٌ ، ولا يتنازع في الدنيا عاملان يتجاذبان النفوسَ ، والعقولَ إلىٰ جهتين مختلفتين ، و﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

ويعلم كلُّ ذي بصيرةٍ ، بل كلُّ ذي بصر : أنَّ مجرد سيادة هـٰذه الأمم ، واستعلائها السياسيِّ ، والماديِّ دعايةٌ عظيمةٌ لدينها ، وحضارتها ، ومبادئها ، ومناهج فكرها وأخلاقها ، لا يقاومها منطقٌ ، ولا استدلال ، ولا حجَّةٌ ولا برهان ، ولا فلسفةٌ ، ولا أخلاق ، ولا تنجح ضدَّها دعوة الأديان ، وإنَّها قد أصبحت بزخارفها مغناطيساً للقلوب ، تنجذب إليها كما ينجذب الحديد .

هٰذه هي الحقيقة التي ذكرها موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما حكىٰ القرآن عنه في دعائه الذي دعا به في مصر علىٰ عهد فرعون ، وهي حقيقةٌ في كلِّ عصرٍ ، ومصر :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] .

فماذا كان من المنتظر من المسلمين ؛ وهم حاملوا رسالة الإسلام ؟ كان المنتظر منهم أن يروا في أوربا ، وأمريكا زعيماً للجاهليَّة ، الذي تولَّىٰ كبرها ، وحمل رايتها في الآفاق ، وكان الواجب أن تكون هٰذه المسألة هي أم المسائل وكبراها في نظرهم ، وأن تشغل ذهنهم ، وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب أن يعدُّوا أنفسهم في كلِّ ناحية من نواحي العالم ممثلين لدعوة الإسلام ضدَّ هٰذه الدَّعوة الجاهلية ، وأن لا يتَّخذوا موقفاً ـ مهما كان اقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية ـ لا يتَّفق وممثلي الإسلام ، وحاملي رسالته ، وأن لا يأتوا بشيءٍ تتغذىٰ به الحركة الجاهلية في العالم ، وأن لا يظهر منهم شيءٌ يَنِمُّ عن ركونهم إلىٰ هٰذا النظام الجاهليَّ الذي بسطته هٰذه الأمم في العالم ، وتريد أن تبسطه ، ويظهر به تعاونهم علىٰ الإثم ، والعدوان ، الذي لا عدوان أكبر منه .

ولـٰكن ممَّا يبعث علىٰ الأسف العميق ، والعجب الشديد في النفوس « عجباً يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان » ـ كما قال عليُّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ في خطبةٍ له ـ : أنَّ المسلمين عامَّتهم لم يدركوا هـٰذه الحقيقة مع وضوحها ، وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصَّحيح في العالم ، ونسوا ، وجهلوا : أنَّهم والأمم الأوروبية الجاهليَّة دعاةٌ لنظامين للحياة متضادَّين ، ولحضارتين متناقضتين ، وأنَّهم وإيَّاها كَكِفتيْ ميزان ، كلَّما رجحت واحدةٌ طاشت الأخرىٰ .

وأصبح المسلمون أخيراً ـ لجهلهم للدِّين ، وما يقتضي من حبٍّ ، وبغضٍ ، وبتأثير الدعاية ـ ينظرون إلىٰ الجاهليَّة الأوربية كالحليف الوحيد للإسلام ، وأنَّهم يُقرعون بين أممها ، ودولها أيُّها أقرب إليهم ، وأنفع لمصالحهم ، وأغراضهم السياسية المالية ، ويجهلون : أنَّها مهما اختلف في نظمها السياسية ، وفي إدارتها الداخلية ، أو سياستها الخارجية ، ومهما تعادت ، وتباغضت فيما بينها ، فإنَّها أخواتٌ شقيقات من أبٍ واحدٍ ، وأمٍّ واحدةٍ ، وأنَّها لا تختلف في المبادئ الأوليَّة وفي فلسفتها التي يسميِّها الإسلام : « الجاهليَّة » وغاب عن عقلاء المسلمين ، والمتعلِّمين منهم ، بل وقادتهم ، وزعمائهم ـ فضلاً عن العامة ـ : أنَّه ما دامت

هٰذه الأمم تتمتَّع بالغلبة السياسية ، وما دامت لها سيطرة علىٰ العالم ؛ فهي المثل الكامل ، والقدوة المثلىٰ في الأخلاق ، والسيرة ، والعلم ، والمدنيَّة ، والفضائل ، والرذائل ، وما دامت كلمتُها عليا ؛ فلا تزدهر للدين دعوةٌ ، ولا تعلو له كلمةٌ ، ولا تسود في العالم الأخلاقُ الفاضلة ، ولا تكون لها قيمةٌ ، ففي مصلحة الإسلام ، وفي مصلحة الإنسانية أن تُعزل بأسرها عن قيادة العالم ، ولمَّا كان المسلمون هم المسؤولين وحدهم عن صلاح العالم وفساده ، ووظيفتُهم الحِسْبَة علىٰ النَّاس ، وهم القوَّامون بالقسط ، شهداء لله ، وهم المراقبون لسير العالم ، فلهم أن يجتهدوا في ذٰلك أكثر من كلِّ شعب وأمَّةٍ ، بل يجب عليهم أن يكونوا طليعةً ، وأن يكونوا إماماً في الحركة ضدَّ الجاهلية ، وأممها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدَّعوة ، وإليهم تعود .

ولٰكن أَجِلْ نظرك في العالم الإسلاميِّ كلِّه ، وانظر في شعوبه ، وأممه ، ودوله ـ إن كانت فيه دول تملك أمرها ـ وفي جميع طبقات المسلمين ، هل ترىٰ شيئاً تستدلُّ به علىٰ أنَّ هٰذه الأمة المنبثَّة في أرجاء الأرض صاحبة رسالة في العالم ، وصاحبة دينٍ ، وعقيدةٍ ، وأنَّها تنكر ممَّا وقع وواقع شيئاً ؟ وتحمل في صدرها حفيظةً ضدَّ الجاهلية ، وأهلها ، وتريد أن ترفع للإسلام رايةً ، وتجتهد لإعلاء كلمة ٱلله ؟ !

كلا ! بل ترىٰ أمَّةً هادئةً مطمئنةً راضيةً بكل ما يقع في العالم اليوم ، سليمة الصدر ، قريرة العين ، ناعمة البال ، تتعاون مع الجاهليَّة ، وأممها وتتحالف معها ، وتقدِّم لها كلَّ معونةٍ تقدر عليها .

لمثل هـٰذا يـذوبُ القلبُ مِنْ كَمَدٍ
إنْ كانَ في القلب إسلامٌ وإيمانُ !

أجل : إنْ كان في القلب إسلامٌ ، وإيمان ؛ لمَا ارتضىٰ مسلمٌ بهـٰذا الخزي ، ولـٰكن كلُّ ذٰلك يرجع إلىٰ عَدَم كون الرَّجل مسلماً ، يحبُّ لله ويبغض لله ، ويوالي في ٱللهِ ، ويعادي في ٱللهِ ، ولذٰلك ذكره القرآن شرطاً في قوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة : ١ ـ ٢] ثم ضرب لذٰلك مثلاً بإبراهيم وأصحابه :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة : ٤] .

يلاحظ القارئ العربيُّ النُّكتة في قول إبراهيم ، وأصحابه ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبلاغة الكلمة وسعتها ، فلم يقولوا : كفرنا بدينكم ، كأنهم قد أصبحوا صورة ، وتمثالاً للكفر ، والجاهلية ، جامعين لمعانيها ، وأشكالها ، ومظاهرها ، ولأنَّ حياتهم كلَّها ، وما يتَّصل بها من علومٍ ، وفلسفةٍ ، وحضارةٍ وثقافةٍ قد سرىٰ فيها روح الكفر ، والجهل ، وذٰلك ينطبق علىٰ كلِّ أمَّةٍ جاهليَّةٍ حُرمت هدي الأنبياء ، وعلومَهم ، وبنت حياتها ، وعلومها ، ومدنيَّتها علىٰ دلالة الحواس ، أو علىٰ القياس ، أو التجارب ، فعمَّ الإنكار لجميع هٰذا ، وكأنَّهم أعلنوا بهٰذا اللفظ أنَّهم ثائرون علىٰ هٰذا النظام الجاهليِّ برمَّته ، وحذافيره ، جاحدون به ، كافرون بأصحابه ، لا يؤمنون لهم بفضلٍ ، ولا يخضعون لهم بشيء !

ثمَّ لينظر القارئ ، ويعتبر كيف : أنَّ المسلمين ـ وهم أتباع دينٍ ، وأصحاب يقين ـ قد آمنوا بزعماء الجاهلية ، وأئمة الكفر ، ولو لم يؤمنوا بدينهم ، ولٰكنَّهم آمنوا بهم بأوسع معاني الكلمة ، وقد اشترط ٱلله للإيمان به الكفر بالطاغوت ، وقدَّمه علىٰ الإيمان به ، فقال : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

أما إذا أصبح المسلمون لا يعنيهم أمرُ الدِّين ،

والأخلاق ، ولا يهمُّهم مصير الإنسانية ، ومستقبل العالم ، ولا تهمُّهم إلا المصالح السياسية ، والفوائد المادية الحاضرة التي تعود علىٰ بلادهم ، أو شعبهم ، وبالأصحِّ علىٰ أشخاصهم ، فحبلُهم علىٰ غاربهم ، وأمرُهم بيدهم ، ولٰكن ليعلموا أخيراً : أن سفينة الجاهلية التي اختاروها لسفرهم قد أحيط بها ، وأنَّ ألواحها قد تآكلت ، ونخرت منذ زمنٍ ، وأنَّ ربابينها قد اختلفوا فيما بينهم في تسييرها ، وقيادتها ، ويعلموا : أنَّ هٰذه السفينة إذا غرقت فإنَّها تُغرق ركَّابها ، وكلَّ من وصلوا أسبابهم بأسبابها ، ولا عاصمَ من أمر ٱلله إلا مَنْ رحم ، وقد قال تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] .

✍ ✍ ✍

مَصْرَع الجاهليَّة

من الأساطير التي سمعنا في الصِّغر ، وبقيت في غضون الذاكرة وبعض ثناياها : أنَّ رجلاً اعتدىٰ عليه عفريتٌ من الجنِّ بمثل ما كان يعتدي به الجنُّ علىٰ البشر ، فبرز الرَّجل بكل ما أوتي من حولٍ ، وطولٍ ، وبكلِّ ما قدر عليه من سلاحٍ ، وشكَّةٍ ؛ ليقتله .

هجم الرجل علىٰ العفريت بكلِّ سلاحٍ ماضٍ ، وسيفٍ باتر ، وسهمٍ مصيب ، ونثر كنانته ، ولم يدع في القوس منزعاً ، ولـٰكنه لم ينكأ عدوَّه ، ولم يصب منه مقتلاً ، وما زال الرَّجل يعيد الكرَّة بعد الكرَّةِ ، ويجرِّب سلاحاً بعد سلاحٍ ، والعفريت ساخرٌ منه غير محتفلٍ به ، كأنَّه من نفسه علىٰ أمانٍ من سهام الرَّجل ، وهجماته في حصنٍ حصين .

حار الرجل في أمره ، وأعياه أمر العفريت ، كاد يقطع من قتله الرَّجاء ؛ إذ أخبره أحد العقلاء : أنَّ هـٰذا العفريت في حوصلة ببَّغاء ، وهـٰذه الببغاء في قفصٍ من حديدٍ ، وهـٰذا القفص معلَّقٌ في غصن شجرةٍ ، وهـٰذه الشجرة في غابةٍ كثيفةٍ

يسكنها سِبَاعٌ ضاريةٌ ، وحيّاتٌ فتّاكة ، وعقارب سامَّة ، ودونها خَرْط القتاد[1] ، وحولها شُمّ الجبال .

وما زال الرجل يطلع جبلاً بعد جبلٍ ، ويقطع وادياً بعد وادٍ ، ويقتل وحشياً بعد وحشيٍّ ؛ حتىٰ خلص إلىٰ هـٰذا القفص ، وخنق هـٰذه الببغاء ، ولم يكد يقتلها ؛ حتىٰ حدثت رجَّةٌ عظيمة دارت بها الأرض الفضاء ، وأظلمت بها آفاق السماء ، وصاح العفريت صيحته الأخيرة ، وكان جثَّةً هامدةً لا حراك بها . وهـٰكذا قتل الرجل عدوَّه بعد ما لقي منه عرق القِرْبَةِ .

لعلك سمعت هـٰذه الأسطورة من عجوزٍ في بيتٍ تحكيها لأحفادها ، أو أسباطها ، فمررت بها مستهزئاً ، وقلت :

حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرٍو .

نعم إنَّها لحديث خرافة ، وأسطورة من أساطير الأوَّلين ، ولـٰكنَّها تفيدنا بأنَّ كلَّ حيٍّ له مقتلٌ ، ووريد ، ولا يؤثِّر فيه عدوٌّ ، حتىٰ يصيبه في مقتله ، ويقطع منه الوريد ، وأنَّ دون ذٰلك المقتل ، وحول هـٰذا الوريد حواجزَ ، وحصوناً .

قد تسلَّط علىٰ الأمَّة الإسلاميَّة عفريتٌ من الحياة

---

(١) « دونه خَرْطُ القتاد » : مثلٌ يُضرب للأمر لا يُنال إلا بمشقةٍ عظيمة .

الجاهلية ، واعتدىٰ عليها بصنوفٍ من الخَبال ، وضروبٍ من الأذىٰ ، والوبال ، ظهرت في كثيرٍ من أخلاقها ، وأفعالها ، كاستخفافٍ بأحكام الشَّرع ، وتجرُّؤ علىٰ المعاصي ، ووقوعٍ في محارم ٱلله ، واستعبادٍ لعباد ٱلله ، وإمعانٍ في الشهوات ، وإسرافٍ في سبيل المتع واللَّذات ، وتهافتٍ علىٰ الخسائس والرذائل ، وفرارٍ عن مكارم الأخلاق ، والفضائل : ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

والناس طبقاتٌ : عامَّةٌ ، وأوساطٌ ، وعظماء .

فأمَّا العامة ؛ فمساكين تدور حولهم رحىٰ الحياة بسرعة ، لا يرفعون فيها إلىٰ الدِّين والسعادة الأخروية والاستعداد للموت رأساً ، وإنَّما همُّهم أن يؤدُّوا ضرائبهم ، ويجمعوا لأيام فراغهم ، ويكسبوا قوت يومهم ، ويكسوا عيالهم ، فهم يكدحون في الحياة كَدْحَ الحمير ، والثيران ، لا يتعبون إلاَّ للراحة الموهومة ، ولا يستريحون إلا للتَّعب الواقع ، فهم من البيت إلىٰ الدُّكَّان ، ومن الفراش إلىٰ المصنع ، أو السُّوق ، أو الإدارة ، ومن نَصَبٍ إلىٰ نصب ، ومن همٍّ إلىٰ همٍّ ، لا تنتهي همومهم ، ولا تنقضي متاعبهم ، حتىٰ إذا جاءتهم الساعة بغتةً ؛ ﴿ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ٣١] .

وأمَّا الأوساط ؛ فهم أسوأ منهم حالاً ، وأكدر منهم

بالاً ، عذَّبهم ٱلله بالحرص ، والجشع ، ينظرون دائماً إلىٰ مَنْ فوقهم ، ولا ينظرون أبداً إلىٰ مَنْ دونهم ، فهم في همٍّ متواصل ، وأحزانٍ متسلسلةٍ ، وشقاءٍ مستمرٍّ ، وتذمُّرٍ جارٍ ، وشكوىٰ قائمةٍ ، وأنينٍ باقٍ ، يَجْرون في رهانٍ لا تنتهي ، ويسابقون جياداً لا تكلُّ ، ولا تُسبق ، ولا يزال قصب السَّبق بعيداً ، كلَّما انتهوا إلىٰ غاية ؛ رأوا غايةً أخرىٰ ، فجروا وراءها ؛ وهي تبتعد عنهم ، كما يبتعد الأفق من الطفل الذي يحاول مسكه ، وشعاع الشمس الذي يجتهد لقبضه ، وهٰكذا يتفلَّت منهم « المثل الأعلىٰ » في الغناء ، والثروة ، والرَّخاء ، والجاه ، فيموت الواحد منهم كئيباً منكسراً ، لم يستعدَّ ليوم الجدِّ ، ولم يأخذ لنفسه عدَّتها ، ويأتيه الموت ، ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون : ١٠] .

وأمَّا العظماء ـ من الملوك ، وأبناء الملوك ، والأمراء ـ فإنَّهم يريدون أن يلتهموا الدُّنيا طولاً ، وعرضاً ، وينتهبوا المسرَّات جرياً ، وركضاً ، لا يشفىٰ عليلهم ، ولا يروىٰ غليلهم ، وهم من دقائق الرَّاحة إلىٰ دقائق ، ومن بدائع إلىٰ بدائع ، ومن ابتكارٍ إلىٰ ابتكارٍ ، ومن لذيذٍ في الطعام ، والشراب إلىٰ ألذَّ ، ومن حديثٍ من مستحدثات المراكب ، والقصور ، والأزياء إلىٰ أحدث ، لا تكفيهم في ذٰلك موارد

قُطْرٍ بأسره ، ومنابع ثروة أمَّةٍ بطولها ؛ حتىٰ يلجؤوا إلىٰ استقراضٍ ، وتجاراتٍ ، وضرائب جديدةٍ ، وأتاواتٍ ، ولا يبالون في سبيل ذٰلك أن يرهنوا بأيدي عدوِّهم رداء الزهراء ، أو كساء أبي ذرٍ ، أو شملة أويس ، أو مصحف عثمان ، أو صمصامة[1] عمرو بن معدي كرب ، أو رمح الزُّبير ، أو بردة كعب بن زهير ، ويهيئوا صبوحاً ، أو غبوقاً .

وقد هجم علىٰ عفريت الجاهلية جيشٌ من المصلحين ، فصاحوا به من كل جانب ، ورموه عن قوسٍ واحدةٍ ، ولٰكن لم ينكؤوا عدوَّهم ، ولم يصيبوا منه مقتلاً .

ألقىٰ الوعَّاظ ، والآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر دروساً في الأخلاق ، وأحاديث في الترغيب ، والترهيب ، طمَّعوا الناس في الجنة ، وحذَّروهم من النار ، بشَّروهم بالوعد ، وخوَّفوهم من الوعيد ، فسمع الناس كلَّ ذٰلك في هدوءٍ ، ولم يحرِّك منهم ساكناً ، ولم يغيِّر منهم خلقاً .

ألَّف المؤلِّفون كتباً جاؤوا فيها بكلِّ رقيق مرقِّق ، أوردوا فيها حكايات زهدِ العُمَرَيْنِ[2] ، وتقشُّف عليٍّ بن أبي طالب ،

---

(١) **الصمصامة** : السَّيف القاطع الذي لا ينثني في ضربته . (قاموس) .

(٢) **العمران** : عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، رضي ٱلله عنهما .

ومواعظ الحسن البصريِّ ، وكلمات ذي النُّون المصري ، ورقائق الفضيل بن عياض ، وزهديات أبي العتاهية ، وفصاحة الواعظ ابن الجوزي ، وتحليل الإمام الغزالي .

قوارعُ تبري العظم من كَلْمٍ مَضٍّ[1] .

فقام الأغنياء ، والأمراء أبناء الملوك ، فاقتنوا هٰذه الكتب ، وزيَّنوا بها مكاتبهم ، وتحدَّثوا عنها إلىٰ ندمائهم ، وزائريهم في لباقةٍ ، ورشاقةٍ ، ولٰكن لم تنفذ سهامُها من العيون إلىٰ القلوب ، ولم تجاوز أحاديثها تراقيَهم .

قام الخطباء البارعون ، فألقوا خطباً أسمعت الصُّمَّ ، واستنزلت العصم ، فسمعها هٰؤلاء ، وأثنوا علىٰ براعتهم ، وفصاحتهم ، ومضوا لسبيلهم ، لم يبكوا علىٰ زلَّةٍ ، ولم يقلعوا عن سيِّئةٍ ، ولم يُحْدِثوا لِلَّهِ عهداً .

لقد كان واللهِ أقلُّ من هٰذا يهزُّ القلوب في الجوانح ، ويستفرغ الدُّموع من العيون ، ويرجف القصور ، ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من أبناء السلاطين ، والأمراء مثل ابن أدهم ، وشقيق البلخي ، يسمع أحدهم ؛ وهو خارج من قصرٍ أو رائحٌ إلىٰ لهو قارئاً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ

---

(١) مضَّه الجرح ، يمضُّه مضّاً ، ومضيضاً : آلمه ، وأوجعه .

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد : ١٦] ، فيقول : وٱلله لقد آن ! وٱلله لقد آن ! ويرمي آلات اللَّهْوِ ، ويخرج من أبهة الملوك ، وحشمة السلاطين إلىٰ تبذُّل الفقراء ، وتقشُّف الزهاد .

فهل فقدت الألفاظ علىٰ تعاقب الأيام معانيها ، أم اعتلَّت الأذواق ، أم استعجمت اللُّغات ، أم ماذا ؟ !

إنَّ شيئاً من ذٰلك لم يقع ، ولـٰكن نفسية الإنسان تغيَّرت تغيُّراً عظيماً ـ كان أمرُ الدِّين في الزمان الماضي ـ برغم جميع أدوائه ، وعيوبه الخلقية والاجتماعية ـ جداً غير هزل ، وكان أمر الدِّين يعني كلَّ واحدٍ ، ويهمُّه كما تهمُّه الحقائق ، والأمور الواقعة ، وكان في بعض الأحيان حُجُبٌ من الترف ، والطبع ، والرسم ، وسوء المعرفة ، وقلة العلم ، فإذا ارتفعت هـٰذه الحُجُب ، وتطرقت دعوة الدين إلىٰ القلوب ؛ لم يحل دون التوبة ، وإصلاح المُحال شيءٌ .

أما الآن فقد أصبح الدِّين موضوعاً تاريخيّاً ، أو حديثاً علميّاً بحتاً ، وأصبح الحديث عنه في المجتمع العصري كالحديث عن كوكب المريخ ، وعجائبه ، وعن القطب الشمالي ، وأخباره ، لا يعود علىٰ المتحدِّثين ، والمستمعين بضررٍ ، أو نفعٍ ، ولا يطالبهم بعملٍ ، أو تركٍ ، ولا يمسُّهم في صميم مسائلهم ، ولا يعني الإنسان ولا يهمُّه في حياته

إلا بمقدار ما يتطرَّف بمعرفته ، ودراسته في بعض المجالس ، أو ما يحادث به أهله عنه الحاجة ، أو ما يجلب به نفعاً ، ويدفع به ضراً في مجتمعٍ لا يزال يدين بالدين ، أو يحترمه ، فليس له إلا قيمته المادية المؤقَّتة .

وأصبحت الحياةُ ، وتكاليفُها جدَّ الجدِّ ، ولبَّ اللُّباب ، وأصبحت مسائلهم همَّ الشيخ ، ودرس الصبيِّ ، وشغل الشابِّ ، وأصبح الجهاد في سبيلها ، والنجاح في ميدانها مقياسَ الفطنة ، والذكاء ، ومعيار الظرافة ، واللباقة ، ورمز المروءة والشهامة .

وهنا يقف الدَّاعي الديني حائراً في أمره : كيف يواجه هٰذه العقلية الهامدة ، والنفسية الباردة في سبيل الدين ؟ ! إنَّه واجه العقول الثائرة علىٰ الدين ، فأخضعها ببراهينه ، ووجد شكوكاً ، وريباً تمكَّنت من النفوس ، فسلَّها بحكمته ، وملأ القلب إيماناً ، وطمأنينة ، ولٰكن هاهنا يجد نفسه في موقفٍ غريب لم يعهده ، فلا إنكار ، ولا جحود ، ولا إباءَ ، ولا استكبار ، ولا عنادَ ، ولا اعتراض ، ولا دليلَ ، ولا فلسفة ، ولٰكن حيادٌ تامٌّ في مسألة الدين ، واستغناءٌ عن كلِّ ما يتصل بالآخرة ، وإخلادٌ إلىٰ الأرض ، ورضاً بالحياة الدُّنيا ، واطمئنانٌ بها .

هنا يقف الدَّاعي حائراً في أمره : كيف يواجه هٰذه

النفسيَّة ، ومن أيِّ باب يدخلها ، إنَّه يجد حولها غشاءً من حبِّ الدنيا ، والمال ، فلا سبيل إليها ، ولا نفوذ فيها إلا بطريق الدنيا ، والمال ، وأنَّ سبيل الدين غير سبيل المال ، وأنَّ طريق الغيب غير طريق الحسِّ ، والشهود ، فماذا يصنع ، ومن أين يبدأ ؟ !

إنْ ألقىٰ علىٰ القوم نصائحه ووجَّه إليهم خطابه ، وحكمته ، ونثر كنانته في الدِّين ، وأجلب عليهم بخيل العلمِ ، والبراهين ؛ ذهب كلُّ ذٰلك فيهم سدىً ، وأجابه لسان الحال قائلاً : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] .

قرأنا في حكايات « ألف ليلة » أنَّ سندباد البحري وجد بيضة عنقاء ، فظنَّها لكبرها ، وضخامتها ، وملاستها قصراً من الرُّخام ، فدار حولها لعلَّه يجد باباً يدخل منه إلىٰ داخل القصر ، ودار مراراً عديدةً ، ولٰكنه لم يجد باباً ، وعرف بعد ذٰلك : أنَّها بيضة عنقاء ، وليست قصراً من القصور .

كذٰلك يدور الدَّاعي حول هٰذه النفسية المستديرة التي استهوتها الدنيا ، وغشيَ عليها حبُّ المال ، أو الجاه ، فلا يجد فيها منفذاً ينفذ منه إلىٰ النفسية ، وينزل في أعماقها ، فيقطع منها الرَّجاء ، وينقلب منها خاسئاً ؛ وهو حسير .

إذاً روح هـٰـذا العفـريـت الجـاهلـيِّ هـو الإخـلاد إلـىٰ الأرض ، الرِّضا بالحياة الدُّنيا ، والاطمئنان بها ، وعبادة المال ، والمادَّة .

هـٰذا مقتل هـٰذا العفريت ، وهـٰذا أَبْهَرُه ، ووريدُه .

وإنَّما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة المؤلفين وأصحاب اليراع ، وإخلاص المخلصين ، وحكمة الحكماء ، لأنهم لم يضربوا علىٰ الوتر الحساس ، ولم يصيبوا العدوَّ في مقتله .

بلغـت المـادِّيـة أوجهـا فـي عهـد الاستيـلاء الأوربـيِّ ، وأصبحت فلسفةً ، وفنّاً ، وحياةً ، ودنيا ، وليس من مظهرٍ من مظاهر حياتها ، ولا مركزٍ من مراكز نشاطها اليوم إلا والفضل فيه يرجع إلىٰ أوربا ، وسيطرتها السياسية ، والاقتصادية مباشرةً ، أو بواسطةٍ ، وإلىٰ غزوها التِّجاري العالميِّ .

تنافس تجار الغرب بدافع من حبِّ الغنىٰ والثروة ، واحتكار الأموال في الصناعة ، والإنتاج ، وغزوا ببضائعهم الشرق ، وامتصُّوا بها دماءه ، ولم يقض ذٰلك لُبانتهم ؛ لأنَّ نطاق الضَّرورة ضيِّقٌ ، والجشع ماله نطاقٌ ، فنافسوا في إنتاج دقائق المدنيَّة ، وفضول الصَّنائع ، وكماليَّات الحياة ، وصبُّوها علىٰ الشرق صبّاً ، واستهلكوا في ترويجها كلَّ ذكاءٍ ،

وأدبٍ ، وفلسفةٍ ، وسياسةٍ ، واستغلُّوا سذاجة الشرق ، وحبَّه للدعاية ، والفخر ، فما لبثت هـٰذه الدَّقائق ، والكماليَّات أن دخلت في أصول المعاش ، ولوازم الحياة في الشرق ، وأصبح الذي لا يتحلَّىٰ بها لا يعدُّ من الأحياء ، ولا يعامل في المجتمع معاملةً سواء ، وأخذت بتلابيب الشرقي ، وأذهلته عن الدِّين ، والآخرة ، وعن كلِّ شيءٍ غيرها في الدنيا ، وأهاجت عليه هموماً لا أرجاء لها ، وبعثت فيه شَرَهاً للمال لا نهاية له ، وأصبحت عليه الحياة جحيماً لا يسمع فيها إلا : هَلْ مَنْ مزيد ؟ !

وما يكاد الشرقيُّ يصل إلىٰ هـٰذه المنتجات ، وشروط الحياة إلا علىٰ جسرٍ من المتاعب ، والمصائب ، وعلىٰ طريقٍ من شوكٍ وقتادٍ ، ولا يكاد يتحلَّىٰ بها إلا وتصبح هـٰذه المستحدثات آثاراً عتيقةً ، وأطماراً بالية ، ويهجم عليه الغرب بطرازٍ حديثٍ من المنتجات ، والمصنوعات ، فينكص علىٰ عقبيه ، ويتزوَّد لاقتنائها بالمال اللازم ـ بوجهٍ مشروع ، أو غير مشروع ـ ولا يكاد يطَّلع علىٰ مجتمعه إلا ويرحل المنسوخ ، ويحلُّ الناسخ ، وهـٰكذا لا يزال من حياته في جهادٍ مضنٍ شاقٍّ ، ومع المصانع الغربيَّة ، والتصدير الغربيِّ في رهانٍ دائمٍ ، يسبقه ، فيلحقه ، ويلحقه ، فيسبقه ، ولا يزال من عيشه في مضضٍ ، وغصصٍ ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم : ١٧] .

أفسدت المدنيَّة الغربية والتجارة الغربيَّة طبائع أهل الشرق وأذواقهم ، علىٰ اختلاف أجناسهم ، وأوطانهم ، ألانت منهم القناة ، وأطفأت فيهم جمرة الحياة ، أذهبت منهم التمدُّد العربيَّ ، والتجلُّد العجميَّ ، وأحدثت فيهم التخنُّث ، والتأنُّث الأوربيَّ ، وأصبحت الفروسيَّة العربيَّة ، والنَّخوة التركيَّة ، والفتوَّة الفارسيَّة ، والبطولة الهنديَّة ، والغيرة الأفغانيَّة حديثاً من أحاديث التاريخ ، وأصبحت الحياة في حواضر الشرق ، بل وفي بواديه نسخةً قاصرةً ممسوخةً من الحياة الغربيَّة المصطنعة ، لها ضَرَّاؤها ، وليست لها سَرَّاؤها ، ولها الغُرْمُ دون الغُنْمِ .

أصبح الناس في كل البلاد في تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلُها الجارف ، ولا يملكون من أمرهم شيئاً ، وأصبح الوالد لا يملك ولده ، والعاهل لا يملك أهل بيته ، بل وأصبح الإنسان لا يملك نفسه أمام الهوىٰ ، وانتقاد المجتمع اللاَّذع ، ووخز الضمير ، وغاص الناس في بحر المدنية إلىٰ آذانهم ، فترىٰ الصعاليك من العجم يغدون في حلَّةٍ ، ويروحون في أخرىٰ ، وترىٰ الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ويتفاخرون باقتناء السيارات الأميركية من أحدث طراز ، وأفخر الأنواع ، حتىٰ يُخاف أن تنقرض

الخيل العتاق من أرض الجزيرة التي ملأت التاريخ ، والأدب بحديثها ، وأخبارها .

شحنت البضائع الغربية أسواق الشرق الإسلامي ، وأنبتت شرايين التجارة الغربية وعروقها ـ وهي طلائع السيادة الغربية ، وسيطرتها السياسية ، وسهامها التي لا تطيش ـ في جوفِ أقدس البلاد الإسلامية ، وأحشائها ، وجاست خلال الديار ، وأصبح أهلها عالة علىٰ البضائع الأجنبية ، حتىٰ عادوا لا يتصوَّرون الحياة ، والمعيشة بغيرها ، ولا يقضون حقوق الأعياد ، والأفراح إلا بها ، وامتصَّت هٰذه البضائع أموالهم ، بل دماءهم كالإسفنج ، يتشرَّبها في بلادهم ويصبُّها في بلاده ، وهٰكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق جبينه ، وكدِّ يمينه ، وبرزيئةٍ في أخلاقه ، وعلىٰ حساب دينه ينتقل إلىٰ البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الإسلاميَّة لتحقيق مشاريعها العمرانية ـ كما تقول ـ أو لقضاء مآرب رجالها ـ كما يقول الناس ـ ، إلىٰ الاستدانة من الدول الأجنبية ، فخفَّت لذٰلك ، ورحَّبت به ، ورصدت لها بعض المال بشروطٍ تجاريَّةٍ ، وامتيازاتٍ سياسيةٍ ، وأقبلت البلاد الإسلامية تحلب ضروعها ، وتستخرج الذهب الوهَّاج ، وماء حياة الصناعة ، والتجارة (البترول) من بطونها ، ويتهافت الفقراء الذين

أجهدتهم الضرائب ، وتكاليف الحياة على أجورها ، وخدمتها تهافت الفراش على الضوء ، والجياع على المائدة ، وهكذا تصبح بلاد الإسلام بين أخطارٍ من الإلحاد ، والاحتلال الأجنبي .

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب المسلول المسموم الذي ولَّدته الثورة الفرنسية ، وأرضعته الفوضى الخلقية ، والإباحة في أوربا ، وغذَّته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر ، الذي ينبت في القلوب النفاق ، ويسقي غرس الشهوات ، ويقوِّض دعائم العمران ، ويفسد نظام الأسرة ، ويسخر من كلِّ فضيلة ، ويستهين بكلِّ أدبٍ ، ونظام ، ويزيِّن للقارئ مذهب اللذة ، والانتفاع ، وانتهاز الفرص يُلَخِّصُ التاريخ ، ويوجز الفلسفة ، والعلم في حبِّ المال ، الميل الجنسي ، ويصوِّر العالم كلَّه كأنَّه ليس إلا ظهور هاتين العاطفتين ، وليس وراء ذلك حقيقةٌ علميَّةٌ ، ومبدأٌ سامٍ ، أو غرضٌ شريف .

وقد انتشر هذا الطابور في أنحاء العالم عن طريق الأدب ، والروايات ، والمجلاَّت و« الراديو » و« السينما » وتأثر به الحاضر ، والباد ، وتحدَّثت به العواتق في خدورها ، وصار ينخر الحضارة الدينية ، والأدب الإسلاميَّ ؛ حتى تسرَّب العطب اليوم إلى لبابه .

وهٰكذا أصبح العالم كلُّه شعوباً ، وحكوماتٍ ، وأفراداً تحت سلطان المادِّيَّة ، والقوَّة ، والجاه ، والشَّهوات ، قد شغلت منه كلَّ موضعٍ ، ومنفذٍ ، وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكت في سبيلها جميع مواهبه ، وقواه ، وتفكيره ، وذكاءَه ، خلقت في الإنسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ، ولا تفكِّر إلا في اللَّذة ، والهناءة ، والسعادة الدُّنيوية ، ولا تهتمُّ إلا بهٰذه الحياة ، ومطالبها الكاذبة التي ما أنزل ٱلله بها من سلطان ، والتي إنَّما فرضتها علىٰ الإنسان الحياة المزوَّرة ، والمجتمع الفاسد ، والتِّجارة الجشعة .

كيف يحلُّ في هٰذه النفس المادية الدِّين الذي أساسه الإيمان بالغيب ، وإيثار الآخرة علىٰ العاجلة ، الذي يقول : ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، والذي يقول : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات : ٣٧ ـ ٤١] .

والذي يقول نبيه ﷺ : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ويقول : « حُفَّت الجنَّة بالمكاره » .

إذاً فالمادية في هٰذا العصر هي علَّة العلل ، وعدوُّ الدِّين

الألدُّ ، ومنافسه الأكبر ، وإنَّ الغرب هو زعيمها الذي تولَّىٰ كبرها ، ووكرها الذي تطير منه ، وتأوي إليه ، وفيه تبيض ، وتفرِّخ .

فأين ذٰلك البطل الذي يمثل قصة الآدمي مع الجنِّي علىٰ مسرح التاريخ والواقع ؟ !

وأين تلك الأمة التي تعارض هـٰذا التيار الجارف ، وتأبىٰ أن تفقد شخصيتها ، ومقوِّمات حياتها ، وتغلب علىٰ أمرها ، فتحوِّل هـٰذا التيار ، وتقلبه رأساً علىٰ عقب ، أو تقف فيه كجبلٍ راسٍ ، أو صخرةٍ صمَّاء ، فيحوِّل التيار مجراه ، ويتَّخذ طريقاً آخر .

إنَّ البطل الذي يمثل قصَّة الآدميِّ مع الجنِّيِّ ، ويفتك به هو رجل الساعة ، وبطل الأبطال ، وفتىٰ الفتيان .

وإنَّ الأمَّة التي تعارض هـٰذا التيار ، وتغيِّر مجراه هي أمام الأمم المبعوثة إلىٰ العالم ، فأين ذٰلك البطل ؟ وأين تلك الأمة ؟ هل تجيب الأمة الإسلامية ، وهل يجيب العالم العربي علىٰ هـٰذا السؤال ؟ !

✍ ✍ ✍

أزمةُ إِيمَانٍ وَأخلاَق [1]

عن أيِّ شيء أتحدثُ ؟ ! إنَّ الأحاديث كثيرةٌ ، والشجونَ كثيرةٌ ، وإذا كثرت الأحاديث ، والمعاني ؛ تحيَّر الإنسان .

ولٰكن سأحدِّثكم عن شيءٍ أؤمن به ، وأعتقده ، ولن أحاول أن أشبع رغبتكم ، أو أن أرضيَ أسماعكم ، بل حسبي أن أرضيَ نفسي ، وضميري ، وإيماني ، فإذا أرضيت ضميري ؛ أكون قد أرضيتكم .

لن أحدِّثكم حديثاً علميَّاً ، ولا تاريخيَّاً ، فقد أُتخمنا بهٰذه الأحاديث ، وفيكم مَنْ يملؤكم علوماً ، ومعانيَ ، وخطابات .

تسمعون الناس يتحدَّثون عن الأزمات ، والمشكلات ـ وهٰذا العصر هو عصر الأزمات والمشكلات ـ

---

(١) محاضرة ألقيت في مركز جمعية إنقاذ فلسطين ببغداد في يوليه لسنة ١٩٥٦م .

يتحدَّثون عن أزماتٍ اقتصاديَّةٍ ، وأزماتٍ سياسية ، ويتحدَّثون عن أزمات الحكم ، وأزمات الاجتماع ، ولـٰكنِّي أعتقد : أنَّ هناك أزمةً واحدةً لا ثانية لها ، هي أزمة الإيمان ، أزمة الأخلاق ، سيحوا في الأرض ، وشاهدوا الأمم والشعوب ، فإنّكم سترون : أن هـٰذه الإنسانية ـ بمختلف الشعوب والأقطار في أنحاء العالم كلِّه ـ تعاني أزمةً واحدةً ، هي : « أزمة الإيمان ، والأخلاق » هي كارثة الكوارث ، وهي مصيبة المصائب ، وكلُّ مشكلةٍ تحدَّث الناس عنها ، واشتكوا منها ترجع إلىٰ هـٰذه الأزمة ، والشيءُ الوحيد الذي فُقد ، وبفقده وقعنا في هـٰذه المصيبة العالمية هو الإيمان ، والشيء الوحيد الذي اعتلَّ ، وباعتلاله أصبحنا نواجه هـٰذه المشكلاتِ كلَّها في نطاق الأفراد ، والمجتمعات ، والحكومات ، والأوضاع العالميَّة هو الأخلاق ، إنَّ الناس أشباه ، ولم يزالوا ، وإنَّنا بشرٌ ، والذين يحكموننا بشرٌ ، ولـٰكن الذي يسيطر علىٰ العالم هو هـٰذه الأزمة الإيمانيَّة الأخلاقيَّة . إنَّ كثيراً من الناس يعتقدون : أن الشأن في الحكومات ، والأحزاب ، فإذا ذهبت وزارةٌ ، وجاءت أخرىٰ ، وإذا ذهب حزبٌ ، وجاء آخر ؛ فقد انحلَّت الأزمة ، وانقشعت المشكلة . إنَّ هـٰذا حكمٌ خاطىءٌ ، ومستعجَلٌ ، ومبنيٌّ علىٰ قصر النَّظر ، ليست المسألة مسألة أحزاب ، أو حكوماتٍ ، أو شيئاً من التعديلات ، إنَّ المسألة

مسألة العقلية ، والاعتقاد ، والنفوس ، والقلوب ، فلا فائدة في هـٰذه التغيُّرات ، وإن تبدَّل حزب بآخر ، أو حكومة بأخرىٰ ، لا يقدِّم ، ولا يؤخر . إنَّ الأفراد كلَّهم يلتقون علىٰ الخضوع للمادَّة ، والاستئثار ، وخدمة النفس ، وهـٰذه النَّفس قد تقصر ، فتصبح نفساً فرديةً ، وقد تتَّسع ، فتصبح نفساً حزبيَّةً ، أو جماعية . إنَّ هـٰذه العقلية هي التي تسيطر علىٰ العالم كلِّه ، وكلُّ ما نعاني من فساد الأوضاع مردُّه إلىٰ فساد هـٰذه النفوس ، وهيمنة هـٰذه العقلية الخاضعة للمادَّة ، الخادمة للمصلحة ، المستأثرة ، الأنانية .

هـٰذا هو الدَّاء أيُّها الإخوان ! فلا تخدعوا أنفسكم ، وكلَّما جرَّدتم النظر ، ونزلتم إلىٰ أعماق الحقائق ؛ فإنكم ستجدون : أنَّ أصل البلاء هو شيءٌ واحد (هو عبادة النفس) فإذا لم تتغيَّر هـٰذه النفوس التي تعبُد المادَّةَ ؛ فلن تتغيَّر هـٰذه الأوضاع أبداً .

إنَّ هـٰذا التنافس الذي تتحدَّث به الصُّحف ، والذي قد يؤدِّي إلىٰ حروبٍ طاحنةٍ ـ تستمرُّ سنين طوالاً تطحن الأمم ـ هو تنافس في الأغراض فقط ، لا تنافس بين الخير ، والشر ، وإنَّ هـٰذا الاصطراع القائم بين الأمم الأوربيَّة ، ليس معناه : أنَّ أمةً منها تريد أن تسيطر علىٰ العالم ؛ لتقضي علىٰ هـٰذه الأوضاع الفاسدة ، ولتخدم الإنسانيَّة ، وتنفِّذ قوانين ٱلله ، وتحارب

الفساد ، وتساوي بين الناس ، وتقيم القسط ، والعدل ، وتأمر بالمعروف ، وتنهىٰ عن المنكر ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، كما قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج : ٤١] .

لا يا أيُّها الإخوان ! إنَّما هو تنافس علىٰ القيادة ، كلُّ أمة تريد أن تمتلك الحكم لتنفذ شهواتها ، إنَّما النِّزاع فيمن يكون صاحب الأمر ، والنهي ، وتكون له قوَّة إرضاء الشَّهوات ، وخدمة المصالح الذَّاتية الحزبيَّة .

فبريطانيا وحليفاتها ـ مثلاً ـ لم تكن تنازع المعسكر الشيوعي لتقيم القسط ، والحقَّ ، وكذٰلك لم يكن المعسكر الشيوعي في وقتٍ من الأوقات لينازع الحلفاء الأوربيِّين في سبيل إقامة العدل ؛ لأنه لم يكن حريصاً علىٰ إقامة الدِّين ، والفضيلة ، إنَّما يصارع ، ويحارب ليكون هو المعسكر الوحيد في العالم الذي يهيمن علىٰ وسائل وإمكانات البشرية ، وليحتكر التجارة العالمية ، ليس لمصلحة البشرية ، بل ليكون الذين يؤمنون بمبادئه ، وينضمُّون إليه يسعدون علىٰ حساب الأمم ، والشعوب التي يسيطر عليها .

إنَّ مردَّ هٰذه المصارعاتِ كلِّها هو شهوة النفس ، وعبادتها ، وما لم تتغيَّر هٰذه النفسيَّة الشرِّيرة ، الفاسدة ،

المتعفنة ؛ فلا مطمع في صلاح العالم ، أو سعادته ، ورفاهه .

المهمُّ ، أو الأهمُّ أيُّها الأخوة أن يتغيَّر الإنسان . إنَّ كلَّ شيءٍ في هـٰذا العالم خاضع للإنسان ، والإنسان خاضعٌ لنفسه ، وضميره ، وعقيدته ، فإذا كانت هـٰذه صالحةٌ كان الإنسان صالحاً ، وإذا صلَح الإنسان ؛ صلَح العالم (ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلَحت ؛ صلَح الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت ؛ فسد الجسد كلُّه ، ألا وهي القلب) [1] .

لقد اصبح الناس مؤمنين ـ بحكم ما يكتبه ، ويقوله أناسٌ لم يتعمَّقوا في العلم ـ بأنَّ صلاح العالم هو في وجود حكومةٍ علىٰ أساس كذا ، وكذا ، أو في تولي الرَّجل الفلانيِّ ، أو الحزب الفلانيِّ الحكم ، وما دروا : أنَّ المجتمع فاسدٌ لفساد الضمائر ، والقلوب ، وما لم تصلح ؛ فلا يؤمَّل الصلاح ، هـٰذا أيها الإخوان قولُ مجرِّبٍ خبير ، لا قول إنسانٍ منطوٍ علىٰ نفسه ، قول رجلٍ تهيَّأ له ـ بحمد ٱلله ـ من الدِّراسة العميقة الشيء الكثير .

قد يدخل الرَّجل إلىٰ غرفةٍ مظلمة ، فلا يستطيع أن يجد طلبه إذا لم يفتح الزرَّ الكهربائي ، ولـٰكن الرجل الخبير بمجرَّد

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الإيمان (٥٢) ومسلم ، كتاب المساقاة (١٥٩٩)(١٠٧) .

دخوله الغرفة يعرف موضع الزرِّ فيفتحه ، فيسري النور في التيار ، ويضيء جنبات الغرفة ، ويقضي الرجل حاجته ، وهٰذا هو شأن الأنبياء ، عليهم السلام ، ومن سار علىٰ أثرهم ، هٰذا الزرُّ ، هو « الإيمان » ، إذا فتح ؛ انطلقت منه موجة النور لتضيء العالم كلَّه .

إني أرىٰ رجالاً في البلاد العربيَّة ، والإسلاميَّة ، وغيرها يَبْدون كباراً في العقل ، والتفكير ، والتجربة ، ولٰكنِّي أستغرب : أن « تفكيرهم قاصرٌ غير ناضجٍ » .

يتكلمون عن المشكلات حديث رجل لم يتعمَّق ، ولم يرسخ ، يتحدَّثون عن مشكلات السياسة ، والاجتماع ، ويعتقدون : أنَّه إذا جاء الحزب الفلانيُّ ذهبت المشكلة ، فإذا جاء الحزب ؛ واجهنا نفس المشكلة ، بل ما هو أكبر منها ، وكثيراً ما نواجه مشكلاتٍ جديدةٍ أخرىٰ ، ثمَّ نجرِّب حزباً آخر ، فإذا هو شرٌّ من الأوَّل ! وصدق الشاعر إذ قال :

ألا إنَّمـــا الأيـــام أبنـــاءُ واحـــدٍ

وهٰـــذي الليـــالـــي كلُّهـــا أخـــوات

فـــلا تطلبـــنْ مِـــنْ عنـــد يـــومٍ وليلـــةٍ

خـــلاف الـــذي مـــرت بـــه السَّنـــواتُ

إلىٰ متىٰ تجري هٰذه التجارب علىٰ الإنسان المسكين ؟

وإلىٰ متىٰ نفحص ، ونشرِّح ، ثم نرجع من غير طائلٍ ؟ إنَّ الأنبياء يمنحونا العلم اليقينيَّ ، ويعطونا العلاج الشافي .

إنَّ المسألة مسألة النفوس ، وما دمنا مُعْرِضين عن هٰذه الحقيقة ؛ فسوف نبقىٰ نعاني مشكلةً بعد مشكلة .

إنَّ من مصائب هٰذه المدنية الإعراضَ عن الأفراد ، فقد أثَّرت العلومُ العمرانيَّة في النفوس ؛ حتىٰ أصبحت تعتمد علىٰ المجموعات ، والمؤسَّسات ، والهيئات الاجتماعية ، والحكومات ، دون الاهتمام بالأفراد ، مع أنَّ الأفراد هم أساس المجتمعات ، والحكومات ، والأحزاب ، والمؤسَّسات ، نقول لهم : أيها السادة ! دونكم الأفراد ، فأصلحوهم ، وهيئوهم لهٰذا الهيكل الاجتماعيِّ ! فسيقولون : ما لنا ، وللأفراد ، نحن في عصرٍ اجتماعيٍّ طابعه الاجتماع . فنقول لهم : آمنا بالاجتماع ، ولٰكن إذا لم يكن الأفراد أين يكون المجتمع ؟ ولٰكنَّهم يقولون : إنَّ الأفراد يصلحون بصلاح المجتمع ! إنَّ مثل هٰؤلاء الذين يهتمون بالمجموعات دون الأفراد مثل مَنْ يجمع أخشاباً نخرةٍ ، متآكلة مخرومة ، ويريد أن يعمل منها سفينةً تحمل جماعةً كبيرة ، وبضائع ثمينة ، فإذا قال له رجل صاحب نظر : إنَّ هٰذه الأخشاب لا تصلح لبناء سفينة تحمل جماعةً كبيرة ، وبضائع ثمينةً ثقيلة ! قال : إنَّ هٰذه الأخشاب لا قيمة لها ، إنما المهمُّ

السفينة ، فإذا تكوَّنت السفينة ؛ فقدت الألواحُ شخصيَّتها ، فلا يهمُّك إن كانت الأخشاب فاسدةً منخورةً !

إنَّ الفاسد فاسدٌ ، ولٰكن إذا اجتمع الفاسد مع الفاسد ينتج الصَّالح ! إن اللِّص لصٌّ ، ولٰكن إذا اجتمعت اللُّصوص أصبحتْ حارسة للمدينة ! !

هٰذه هي عقلية أوربا : إنَّ اللصوص أصبحوا لصوصاً في أفرادهم ، ولٰكنَّهم أمناء في مجموعهم ، ما هٰذا المنطق ؟ !

الذئب ذئب ، ولٰكن إذا اجتمعت الذِّئاب أصبحت راعيةً ! إنَّ الجمرة تحرق البيت ، ولٰكنَّها إذا اجتمعت الجمرات أصبحت برداً ، وسلاماً ! !

هٰذا شيءٌ مضحكٌ ، ولٰكن أليس هٰذا هو الأساس الذي يعمل في المدرسة ، والحكومة ، والمحكمة ؟ !

من أين جاءت الحكومة ، والقضاة ، والجنود ؟ أليس أكثر هٰؤلاء فاسدين ، ودون المستوىٰ الواجب ؟ فكيف تتحوَّل هٰذه العصابات المجرمة إلىٰ مجموعةٍ صالحةٍ ، رفيعة المستوىٰ ، عاليةٍ في الأخلاق ؟

العالم كلُّه ـ مع الأسف ـ خاضعٌ لهٰذا المنطق ، حتىٰ في المستويات العلميَّة .

إنَّ مدراء البلديات ، والجامعات ، والمؤسَّسات

العلميَّة ، والحكَّام لو كانوا في الزمن الأول ؛ لما استحقوا أقلَّ من الطَّرد ، بل لكانوا في السُّجون ، ولو أرادوا أن يشغلوا وظيفةً حقيرةً ؛ ما استحقوا .

لقد طغت هـٰذه العقلية علىٰ الأفكار ؛ حتىٰ أصبح الذي يثير مسألة الأفراد يُتَّهم بالرَّجعية .

يا أصحاب القلوب المؤمنة ! أنتم المجتمع ، في قسمات وجوهكم ، وضمائركم ، وعقولكم يرقد المستقبل الزَّاهر الذي نؤمِّله ، فهيِّئوا نفوسكم تهيئةً روحية خلقيةً ، علميَّةً ، إيمانيَّةً ، هـٰذا هو نداء الوقت ، وواجب الساعة ، وجهاد اليوم .

لقد وجدت الحديث عن العالم الإسلامي حديث كلِّ بلدٍ حللته ، وزرت فيه إخواننا ، وهو حديثُ كلِّ مجلسٍ حضرته . إنَّ العالم الإسلامي حقيقةٌ قائمةٌ تسعىٰ علىٰ قدميها ، لا ينكر فضله إلا جاهلٌ ، أو أحمق .

أنا أؤمن به ، وشاهدته في الهند ، وباكستان ، وتركيا ، وسوريا ، ومصر ، وأنتم أيا الإخوان جزءٌ من العالم الإسلاميِّ ، إذا كنتم تعتقدون : أنه يعيش بغيركم ، وليس عليكم مسؤوليته ؛ فأنتم مخطئون ، ولـٰكن أخشىٰ : أنَّ كثيراً من الناس يهتمُّون بكلِّ شيءٍ غير نفوسهم ، وهـٰذا هو الواقع فعلاً . أنا أفكِّر في العالم ، ولـٰكن أنا كذٰلك جزءٌ منه ،

فَلأُصلح هـٰذا الجزء ، ولـٰكني أرىٰ كثيراً من إخواني لا يفكِّرون في نفوسهم ، ويعتقدون : أنَّ العالم الإسلاميَّ هو كلُّ ما يغاير نفوسهم ، علينا أن نصلح نفوسنا ، وليعتقد كلٌّ منَّا : أنَّه مسؤول ، فإذا صلَحتْ هـٰذه الأجزاء ؛ صلح العالم الإسلاميُّ . إنَّ مثلنا أيُّها الإخوان كمثل ملك أعلن : أنه يريد حوضاً مملوءاً باللَّبَن « الحليب » ، وأنَّه سيدفع الثمن لكلِّ من يجلب الحليب ، فقال أحد اللَّبانين : لو أفرغ لبَّانٌ واحدٌ سطلاً من ماءٍ ، فإنَّ هـٰذا الماء لا يؤثر في الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماءٍ بدلا من حليب ، وفكر آخر نفس التفكير ، وهـٰكذا سرت الفكرة بين الجميع ، وجاء الملك في الصباح ، فوجد حوضاً من ماء .

هـٰذه قصَّتُنا ـ إنَّ كلَّ فردٍ منَّا يقول : إذا فسدت ؛ فماذا يضرُّ العالم الإسلاميَّ ؟ وبهـٰذا أصبح كلُّ العالم الإسلاميِّ فاسداً ـ لو فكرتم ؛ لرأيتم : أنَّ كل حديثكم عن غيركم .

أنصفوا نفوسكم أيُّها الإخوان ، وما لكم وهـٰذه القضايا التي لا تستطيعون خدمتها ، إنَّ الاشتغال بالغير سهلٌ ، ولـٰكن الاشتغال بالنفس صعبٌ ، والإنسان يحبُّ السهولة ، ولذٰلك اندفع العالم الإسلاميُّ كلُّه إلىٰ الاهتمام بغيره ، هـٰذا تفكير يجب أن يعالج .

أنتم العراق ، وإذا كنتم العراق ، فأنتم جزء من العالم

الإسلاميِّ ، فيجب علىٰ كلٍّ منا أن يهيِّيءَ نفسه ؛ ليكون لبنةً صالحةً في البناء .

لنكن فتيةً مجاهدةً ، مؤمنةً ، صادقةً ، طاهرة النفس ، واضحة التفكير ، عميقة الجذور ، قوية العاطفة ، فائضة الحبِّ .

فإذا كنا كذٰلك ؛ فصدقوني : أنَّنا نستطيع أن نغيِّر تيار الفساد .

الأزمة أزمة رجال ، فأين الرِّجال ؟ وإن كثيراً من الناس يحرصون علىٰ الحكومات ، ويعتقدون : أنَّها هي المفتاح ، ولٰكنَّ الحكومة يسيِّرها الرِّجال ، فَمَنْ هم هٰؤلاء الرِّجال ، وكيف هم ؟ هٰذا هو داء العالم الإسلاميِّ ، فأنتم هيِّئوا نفوسكم « لمعركة المستقبل » « معركة الأخلاق » و« الإخلاص ، والتضحية » ، إذا وجد رجلٌ واحدٌ يستطيع أن ينسىٰ نفسه ، ومصلحته ، ومصلحة أسرته ، وأصدقائه ، وحزبه ، ويستهدف مصلحة بلده ، وأمَّته ؛ لاستطاع أن يُحْدِث انقلاباً .

كان الجو قاتماً ، والعالم الإسلاميُّ يعاني مشكلةً عظيمةً ، وكان الولاة جائرين ، والجهازُ فاسداً ، والمظالمُ سائدةً ، والحقوق تمتهن ، والناس غير آمنين ، وكان العالم

الإسلامي من شرقه لغربه ، ومن شماله لجنوبه يعاني مرضاً مرهقاً ، جاء رجلٌ واحدٌ هو « عمر بن عبد العزيز » عرف ربَّه ، ونسي نفسَه ، وذكر اليوم الآخر ، فاستطاع أن يغيِّر هـٰذا التيار ، ويرغم العالم الإسلاميَّ علىٰ أن يتَّجه إلىٰ الصلاح ، أين الأفراد ؟ وأين من ينتجهم ؟ هل تنتجهم الكلِّيات ، والمعاهد ؟ لا ! إنَّما يربيهم الإيمان ، وتنتجهم العقيدة ، والأخلاق .

فكلمتي لكم ، أن تهيئوا نفوسكم ، ربُّوا فيها الإيمان ، والعقيدة ، كونوا مؤمنين بٱلله ، واليوم الآخر ، ومصلحة الإسلام ، كونوا رجالاً ، إذا دانت لهم البلاد ، وأصبحوا يملكون أَزِمَّة الأمور ؛ لم يغيِّرهم الوضع الفاسد عمَّا كانوا عليه . هـٰذا كان شأن الصحابة ، كانوا ضعفاء فقراء لا يملكون ما يكسون به أجسامهم ، ويشبعون به بطونهم ، فدانت لهم الدنيا ، وتفتَّحت لهم الخزائن ، فما تغيَّروا .

بقي أبو عبيدة وسعد كما كانا ، وجاء سلمان إلىٰ العراق والياً ، فخرج الناس لاستقباله ، فرأوه يحمل علىٰ رأسه حِمْلاً لرجلٍ علىٰ أجرة .

إنَّ العالم لم يفسد إلَّا عندما فسد الأفراد ، وفقد هـٰذا الطراز الذي تخرَّج في مدرسة محمَّد ﷺ نحن في حاجة إلىٰ هـٰذا الطراز ، وهو لا يرتجىٰ إلا منكم ، من مثل هـٰذا الشباب

المسلم ، المؤمن الصادق الذي يوطِّن نفسه علىٰ الشَّظف ، والحياة البسيطة . إنَّ من أمراض الأمة العربية هٰذا التنعُّم ، والتبذير ، والعادات القاهرة ، لا يستطيع أحدُهم أن يعيش من غير سيارة ، وبيتٍ فخمٍ ، وراتب ضخمٍ ، إنَّ هٰذه الأمراض قعدت بأمَّتنا ، وهٰذا كان داء الرومان ، والفرس ، فقد أسرفوا في المدنيَّة ، والتنعُّم ، يدلُّ علىٰ ذٰلك : أنَّه لما زحف المسلمون علىٰ المدائن ، وفتحوها ، خرج « يزدجرد » يحمل معه ألف طاهٍ ، وألف مربٍّ للبزاة ، والصقور ، ويقول : إنِّي في حالةٍ يُرثىٰ لها ، أخذتُ هٰؤلاء فقط !

إلىٰ هٰذا الحدِّ وصلت مدنيَّتهم ، ولذٰلك انهارت هٰذا الانهيار الفظيع ، كان الذي يلبس قلنسوةً قيمتها دون ٥٠ ألفاً يعيَّر ، وكانوا يلبسون مناطق بقيمة ٣٠ إلىٰ ٥٠ ألف مرصعةً بالجواهر ، والياقوت ، فهٰذه المدنية الزائفة هي التي جنت عليهم ، فخسروا الدَّولة ، والشَّرف ، والمَجْدَ ، والحياة .

فهيئوا نفوسكم للجهاد ، والدَّعوة ، وإذا قُلِّدتم أمانةً ؛ فأحسنوا القيام عليها . هٰذه وصيتي لكم ، وربما لا تقيمون وزناً لها ، ولٰكنَّكم ستذكرون ذٰلك في المستقبل ، ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [غافر : ٤٤] .

إنَّ الأزمة أزمة رجال ، وأزمة إيمانٍ ، وأخلاق ، وإنِّي

أعيذ نفسي أن أؤمن بالفكرة القاصرة ، القائلة بتغيُّر الوضع إذا تغيرت الحكومات والأحكام ، لقول ٱلله تعالىٰ : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج : ٣٩ ـ ٤٠] (إلىٰ أن قال) : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج : ٤١] .

انظروا كيف قدَّم ذكر هـٰذه المِحْنَة ، التي خرجوا منها كما يخرج الإبريز من النار ، وخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ ؛ حتىٰ أصبحوا رجالاً إن مكَّنهم ٱلله في الأرض ؛ أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

فإذا لم نقطع هـٰذه المرحلة ؛ لا نستطيع أن نصل إلىٰ الدرجة التي وصفها ٱلله بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء : ٧٧] لم يحدِّثهم عن الحكومة ، والنتائج الأخيرة ، ولـٰكن ربَّاهم تربيةً إسلاميَّةً عميقةً شاملةً للأخلاق ، والتفكير ؛ حتىٰ إذا نشأت النُّفوس ؛ انطلقت الموجة ، وكان ما كان .

أقول وأنا مخلصٌ ناصحٌ : اهتمُّوا بأنفسكم اهتماماً دينياً ، خلُقياً ، تربويَّاً ، فكريَّاً ، وآمنوا بأنَّكم أنتم العالم الإسلاميُّ ، كما قال الشاعر :

وفيــكَ انطــوىٰ العــالــمُ الأكبــرُ

وإذا صلَحنا ؛ صلَح العالم الإسلاميُّ ، وإذا صلَحت الأجزاء ؛ صلَحت المجموعة .

أقول قولي هـٰذا ، وأستغفر ٱلله لي ، ولكم !

✍ ✍ ✍

ردَّةٌ وَلا أبو بكرٍ لها [1]

شهد التاريخ الإسلاميُّ حوادث ردَّةٍ عديدةً ، أبرزها وأعنفها ردَّةُ القبائل العربية علىٰ إثر وفاة الرَّسول ﷺ الثورة الكبيرة التي وأدها أبو بكر الصدِّيق في مهدها بإيمانه ، وعزمه الذي ليس له مثيلٌ في التاريخ . ومنها حركة التنصُّر التي انتشرت في إسبانيا علىٰ إثر جلاء المسلمين ، والتي ظهرت في بعض الأقطار التي استولت عليها الدُّول الغربيَّة المسيحية ، ونشط فيها القُسُسُ ، و« الإرساليات » . ومنها قضايا شاذَّةٌ من ارتداد بعض ضعاف العقول ، وصغار النفوس من المسلمين عن دين الإسلام ، واعتناقهم للبرهميَّة ، أو الآريَّة في الهند ، ولٰكنَّها حوادث نادرةٌ جدَّاً ، وفي الحقيقة : إن تاريخ المسلمين لا يعرف الردَّة العامَّة ـ إذا استثنينا إسبانيا البائسة ؛ إذا صحَّ أن نسمِّيها ردَّةً ـ كما اعترف به مؤرخو الدِّيانات .

---

(١) مقال كتب افتتاحية لمجلة « المسلمون » وطُبع رسالةً مفردةً ، ونقل إلىٰ عدَّة لغات .

وتَّسم هٰذه الحوادث كلُّها بسمتين : أولاهما : المقت الشديد من المسلمين ، والثانية : الانفصال عن المجتمع الإسلاميِّ ، فكان كلُّ من يرتدُّ عن دينه يستهدف لسخط المسلمين الشديد ، وينفصل عن المجتمع الإسلاميِّ الذي يعيش فيه بطبيعة الحال ، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين ذوي قرابته الأواصر ، والأرحام ، وكانت الردَّة انتقالاً من مجتمعٍ إلىٰ مجتمعٍ ، ومن حياةٍ إلىٰ حياةٍ ، وكانت الأسرة تقاطعه ، وتهجره ، وتُقصيه ، فلا مصاهرة ، ولا زواج ، ولا إخاء ، ولا توارث ، وكانت حركات الردَّة تثير روح المقاومة في المسلمين ، والمقارنة بين الدِّيانات ، والدفاع عن الإسلام ، وكلُّ قطرٍ من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردَّة تحمَّس علماءُ المسلمين ، ودعاةُ الإسلام ، وحملةُ الأقلام فيه للردِّ عليها ، وتتبُّع أسبابها ، وعرض محاسن الإسلام ومزاياه ، واجتاحت المجتمعَ الإسلاميَّ موجةٌ عنيفة من السُّخط ، والاستنكار ، والقلق ، وكانت هٰذه الحوادث المُقِيْمَةَ المُقْعِدَةَ للمسلمين ، وكانت الحديثَ العامَّ ، والشُّغل الشاغل للعامَّة فضلاً عن الخاصَّة ، وأهل الغيرة الدِّينية ، هٰذا ما اتَّسمت به حوادث الردَّة علىٰ ندرتها ، وشذوذها ، وعلىٰ عدم تأثيرها في الحياة .

ولٰكن جرَّب العالم الإسلاميُّ في العهد الأخير ردَّةً

اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلىٰ أقصاه ، وبزَّت جميع حركات الردَّة : سبقتها في العنف ، وفي العموم ، وفي العمق ، وفي القوة ، ولم يخل منها قطرٌ ، وقلَّما خلت منها أسرةٌ من أسر المسلمين ، هي ردَّةٌ تلت غزو أوربا للشرق الإسلامي : الغزو السياسي ، والثقافي . وهي أعظم ردَّةٍ ظهرت في عالم الإسلام ، وفي تاريخ الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ إلىٰ يوم الناس هٰذا .

ماذا تعني الردَّة في عرف الإسلام ، وفي مصطلح الشريعة الإسلامية ؟ هي : إبدال دينٍ بدينٍ ، وعقيدةٍ بعقيدةٍ ، وإنكار ما جاء به الرسول ، وتواتر عنه ، وثبت بالضَّرورة من دين الإسلام .

وماذا كان يفعل المرتدُّ ؟ ينكر الرسالة المحمَّدية ـ علىٰ صاحبها الصلاة والسلام ـ وينتقل إلىٰ المسيحيَّة ، أو اليهوديَّة ، أو البرهميَّة ، أو يلحد في الدين ، وينكر الرسالات ، والوحي ، والمعاد . هٰذا ما كان يعرفه العالم القديم ، أو المجتمع القديم من معاني الردَّة ، وكان كلُّ من يرتد يدخل الكنيسة إذا تنصَّر ، أو يدخل الهيكل أو معبد الأصنام إذا اعتنق البرهمية مثلاً ، فيعرف ذٰلك الجميع ، ويصبح شامةً بين الناس ، يشار إليه بالبنان ، ويقطع منه

المسلمون الأمل ، ولا يكون ارتداده ـ في غالب الأحوال ـ سرّاً من الأسرار .

حملت أوروبا إلىٰ الشرق الفلسفات التي قامت علىٰ إنكار أسس الدين ، وإنكار القوَّة المُصَرِّفة لهٰذا العالم ، القوَّة الواعية التي أخرجت هٰذا العالم من العدم إلىٰ الوجود ، وبيدها زمام الكون ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وعلىٰ إنكار عالم الغيب ، والوحي ، والنبوءات ، وإنكار الشرائع السماوية ، وإنكار القيم الروحيَّة ، والخلقيَّة ، منها ما يبحث في علم الحياة ، والنشوء والارتقاء ، ومنها ما يتَّصل بالأخلاق ، ومنها ما يدور حول علم النفس ، ومنها ما موضوعه الاقتصاد ، والسياسة ، ومهما اختلفت هٰذه الفلسفات في ألوانها ، وأهدافها ، وأسسها ؛ فإنَّها جميعاً تلتقي علىٰ النظريَّة المادِّية المحضة إلىٰ الإنسان ، وإلىٰ الكون ، والتعليل المادِّي لظواهرهما ، وأفعالهما .

غزت هٰذه الفلسفات المجتمع الشرقيَّ الإسلاميَّ ، وتغلغلت في أحشائه وكانت أعظمَ ديانةٍ ظهرت بعد الإسلام في التاريخ ، أعظمها انتشاراً ، وأعمقها جذوراً ، وأقواها سيطرةً علىٰ العقول ، والقلوب ، وأقبل عليها زهرة البلاد الإسلاميَّة ، زبدَتُها عقلاً وثقافةً ، وأساغتها وهضمتها ودانت بها كما يدين المسلم بالإسلام ، والمسيحيُّ بالمسيحية بكلِّ معنىٰ الكلمة ،

فهي تستميت في سبيلها ، وتقدِّس شعارها ، وتجلُّ قادتها ، ودعاتها ، وتدعو إليها في أدبها ، ومؤلَّفاتها ، وتحتقر كلَّ ما يعارضها من الأديان ، والنظم ، والعقليات ، وتؤاخي كلَّ من يدين بها ، فأفرادها أمةٌ واحدةٌ ، وأسرةٌ واحدةٌ ، ومعسكرٌ واحدٌ .

وما هي هٰذه الديانة ـ وإن أبىٰ أصحابها أن يسمُّوها ديانة ـ ؟ إنكارٌ لفاطر الكون العليم الخبير الذي قدَّر فهدىٰ . وإنكار للمعاد . وحشر الأجساد ، ووجود الجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب . وإنكارٌ النبوءات ، والرِّسالات ، وإنكار للشرائع السماوية ، والحدود الشَّرعية ، وإنكار : أنَّ الرسول الأعظم هو الذي فرض ٱلله طاعته علىٰ جميع الخلق ، وحصر الهداية ، والسعادة في اتِّباعه ، وأنَّ الإسلام هو الرسالة الأخيرة الخالدة المتكفِّلة لجميع السَّعادات الدنيوية ، والأخروية ، ونظام الحياة الأمثل الأفضل ، وهو الدِّين الذي لا يقبل ٱلله غيره ، ولا يسعد العالم سواه ، وإنكار : أنَّ الدنيا خُلقت للإنسان ، وأنَّ الإنسان خَلْقُ ٱلله .

هٰذه ديانة الطبقة المثقفة الممتازة التي تملك زمام الحياة في أكثر البلدان الإسلامية ، وإن لم تكن كلها طبقةً واحدة في الإيمان بها ، والتحمُّس لها ، وفيها ـ ولا شك ـ مؤمنون بٱلله متديِّنون بالإسلام ، ولٰكن سمة هٰذه الطبقة التي تغلب عليها

مع الأسف ، وديانة أكثر أفرادها ، ورؤسائها هي الديانة المادِّية ، وفلسفة الحياة الغربيَّة التي قامت علىٰ الإلحاد .

إنَّها ردَّةٌ ـ أعود ، فأقول ـ : اكتسحت العالم من أقصاه إلىٰ أقصاه ، وغزت الأسر ، والبيوتات ، والجامعات ، والكلِّيات والثانويات ، والمؤسَّسات ، فما من أسرةٍ مثقفة ـ إلا من عصم ربك ـ إلا وفيها من يدين بها ، أو يحبُّها ، أو يجلُّها ، وإذا استنطقته ، أو خلوت به ، أو أثرته ؛ عرفت : أنه لا يؤمن بٱلله ، أو لا يؤمن بالآخرة ، أو لا يؤمن بالرسول ﷺ ، أو لا يؤمن بالقرآن الكتاب المعجز الخالد ودستور الحياة ، وأفضلُهم مَنْ يقول : إنه لا يفكر في مثل هٰذه المسائل ، ولا يهتم بها كبير اهتمام .

إنَّها ردة ولٰكنها لم تلفت المسلمين ، ولم تشغل خاطرهم ؛ لأنَّ صاحبها لا يدخل كنيسةً ، أو هيكلاً ، ولا يعلن ردَّته ، وانتقاله من دينٍ إلىٰ دينٍ ، ولا تنتبه لها الأسرة ، فلا تقاطعه ، ولا تُقصيه ، بل يظلُّ يعيش فيها ، ويتمتع بحقوقها ، وقد يسيطر عليها ، ولا ينتبه لها المجتمع ، فلا يحاسبه ، ولا يعاتبه ، ولا يفصله ، بل يظلُّ يعيش فيه ، ويتمتَّع بحقوقه ، وقد يسيطر عليه .

إنَّها قضية العالم الإسلامي الكبرىٰ ! إنَّها مشكلة الأمة الإسلامية الكبرىٰ ! ردَّةٌ تنتشر وتغزو المجتمع الإسلامي ، ثم

لا ينتبه لها أحدٌ ، ولا يفزع لها العلماء ، ورجال الدِّين ، لقد قالوا قديماً : « قضيةٌ ولا أبو حسنٍ لها » وأقول : قضية ولا أبو بكرٍ لها .

إنَّها قضيةٌ لا تطلب حرباً ، ولا تطلب تهييج الرأي العامِّ ، ولا تطلب ثورةً عنفاً ، بل إنَّ العنف يضرُّها ، ويهيجها ، والإسلام لا يعرف محاكم التفتيش ، ولا يعرف الاضطهاد ، إنَّها تطلب عزماً ، وتطلب حكمةً ، وتطلب صبراً ، واحتمالاً ، وتطلب دراسةً ،

لماذا انتشرت هٰذه الدِّيانة في الشَّرق الإسلاميِّ ؟

لماذا استطاعت أن تغزو المسلمين في عقر دارهم ؟

ولماذا استطاعت أن تسيطر علىٰ العقول ، والنفوس هٰذه السيطرة القويَّة ؟ إنَّ كلَّ ذٰلك يطلب التفكير العميق الدَّقيق ، والدِّراسة الواسعة .

ضعف العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر المسيحيِّ في الدَّعوة ، والعقيدة ، والعلم ، وبدا عليه الإعياء ، والشيخوخة ، والإسلام لا يعرف الشيخوخة ، والهرم ، إنَّه جديدٌ كالشمس ، وقديم كالشَّمس ، وشابٌّ كالشمس ، ولٰكن المسلمين هم الذين شاخوا ، وضعفوا ، فلا سعة في العلم ، ولا ابتكار في التفكير والإنتاج ، ولا عبقرية في

العقل ، ولا حماسة في الدَّعوة ، ولا عرضا جميلاً ، ومؤثِّرا للإسلام ، ومزاياه ، ورسالته إلا النادر القليل .

ولا صلة بالشباب المثقَّف والتأثير في عقليتهم ، وهم أمَّةُ الغد ، والجيل المُرتجىٰ ، ولا محاولة لإقناعهم بأنَّ الإسلام هو دين الإنسانيَّة ، والرِّسالة الخالدة ، وأن القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تنفد ذخائره ، ولا تَبلىٰ جِدَّته ، وأنَّ الرسول هو المعجزة الكبرىٰ ، ورسولُ الأجيال كلِّها وإمام العهود كلِّها ، وإنَّ الشريعة الإسلامية هي الآية في التشريع ، وهي الصالحة لمسايرة الحياة ، وقضاء مآربها الصالحة ، والإشراف عليها ، وأنَّ الإيمان ، والعقيدة ، والأخلاق ، والقيم الرُّوحيَّة هي أساس المدينة الفاضلة ، والمجتمع الكريم ، وأنَّ الحضارة الجديدة لا تملك إلا الوسائل ، والآلات ، وأنَّ تعاليم الأنبياء هي مصدر العقيدة والخلق ، والغايات ، ولا مطمع في المدنيَّة الصالحة المتزِّنة إلا بالجمع بين الوسائل ، والغايات .

وفي هٰذه الساعة هجمت أوروبا بفلسفاتها التي تعب في تدوينها ، وتهٰذيبها كبار الفلاسفة ، ونوابغ العصر ، وصبغوها بصبغةٍ علميَّةٍ فلسفيَّةٍ يخيل إلىٰ الناظر : أنَّها غايةُ ما يصل إليه التفكير الإنسانيُّ ، ومنتهىٰ الدراسات والاختيارات ، ونتائج العقول البشريَّة ، وعصارة التأمُّلات ، وكان فيها ما يقوم علىٰ

الاختبار ، والمشاهدة ، وتصدقه التَّجربة ، وما يقوم علىٰ الافتراض ، والتحكُّم ، والتَّخيُّل ، والتوهُّم ، وفيها الحقُّ ، والباطل ، والعلم ، والجهل ، والحقائق الرَّاهنة ، والتخيُّلات الشعرية ، وليس الشعر محصوراً في النَّظم ، والقوافي ، هو في الفلسفة ، والعلم أيضاً .

ووردت هـٰذه الفلسفات مع الفاتحين الأوروبيِّين ، فخضعت لها العقول ، والنُّفوس البشريَّة ، وأذعنت لها ، وقبلتها الطبقة المثقَّفة في الشَّرق ، وفيهم من يفهمها ، وهم القلَّة القليلة ، وفيهم مَنْ لا يفهمها ، وهم الكثرة الكاثرة ؛ ولـٰكن كلُّ مؤمنٍ بها مسحورٌ بسحرها يرىٰ الظرافة ، والكياسة في اعتقادها ، ويرىٰ ذٰلك شعار المثقَّفين الأحرار .

وهـٰكذا انتشر الإلحاد ، والارتداد في الأوساط الإنسانيَّة من غير أن ينتبه له الآباء ، والأساتذة المربُّون ، وأهل الغيرة ؛ لأن أهلها لم يقوموا في كنيسةٍ ، ولم يدخلوا في معبدٍ ، ولم يسجدوا لصنمٍ ، ويذبحوا لطاغوتٍ ، وكان ذٰلك دليل الارتداد ، والكفر ، والزندقة في العهد القديم .

وكان المارقون القدماء يخرجون من المجتمع الإسلاميِّ ، وينضمُّون إلىٰ مجتمع الديانة التي يدينون بها جديداً ، ويعلنون عقيدتهم ، وتحوُّلهم بصراحةٍ ، وشجاعةٍ ، ويحتملون كلَّ ما يخسرونه في سبيل عقيدتهم الجديدة ،

ولا يلحُّون علىٰ البقاء في المجتمع القديم ؛ ليحافظوا علىٰ ما كانوا يتمتَّعون به من حقوقٍ ، وحظوظ .

أما الذي يقطع صلته عن دين الإسلام اليوم فلا يريد أن يقطع صلته عن المجتمع الإسلاميِّ ، مع أنَّ المجتمع الإسلاميَّ هو المجتمع البشريُّ الوحيد الذي يقوم علىٰ العقيدة ، ولا يتحقَّق هٰذا المجتمع من غير عقيدةٍ ، ويلحُّون علىٰ أن يعيشوا في مراكزهم متمتِّعين بثقة هٰذا المجتمع ، متمتِّعين بالحقوق التي يخوِّلها الإسلام . إنَّ هٰذا وضعٌ شاذٌّ لم يعرفه التاريخ الإسلاميُّ .

هنالك نزعاتٌ جاهليَّةٌ ، ومبادئ جاهليَّةٌ حاربها الإسلام بكلِّ وضوح ، وحاربها الرَّسول ﷺ بكلِّ قوَّةٍ ، كالعصبية الجاهليَّة التي تقوم علىٰ وحدة الدَّم ، أو الوطن ، أو الجنس ، وتمجَّد هٰذه العصبية ، ويبالغ في تقديسها ، والدِّفاع عنها ، والقتال تحت رايتها ، وتوزيع المجتمع الإنسانيِّ علىٰ أساسها ؛ حتىٰ تصبح ديانةً ، وعقيدةً ، وتسيطر علىٰ العقول ، والنفوس ، والأرواح ، والآداب ، ولا شكَّ : أنها في عمقها ، ورسوخها ، وقوَّتها ، وشمولها تنافس الأديان ، وتستعبد الإنسان ، وتحبط مساعي الأنبياء ، وتحدِّد الدِّين ـ الذي جاء ليحكم علىٰ الحياة ـ في العبادات ،

والطقوس ، وتقسِّم العالم الإنساني إلىٰ معسكرات متحاربةٍ ، والأمة التي قال ٱلله عنها : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢] في أممٍ كثيرةٍ .

لقد حارب الرسول هـٰذه العصبية الجاهلية بكلِّ قوَّةٍ ، ومن غير هوادةٍ ، وأنذر منها ، وسدَّ منافذها ، فلا بقاء للدِّين العالمي ، ولا بقاء للأمة الواحدة مع هـٰذه العصبيات ، ومصادر الشريعة الإسلامية زاخرةٌ بإنكارها ، وتشنيعها ، والنصوص في ذٰلك أكثر من أن تستقصىٰ ، وهـٰذا الذي يُعرف بداهة من الإسلام ، والذي عرف طبيعة الإسلام ، بل عرف طبيعة الأديان ؛ عرف : أنَّها لا تسيغ هـٰذه العصبيات ، ومن درس التاريخ متجرداً عن الميول ، والمذاهب السياسية ، عرف : أنها لم تزل ، ولا تزال من أقوىٰ عوامل الهدم ، والتخريب ، والإفساد ، والتفريق بين الإنسان ، والإنسان ، والمعقول المنتظر من الإنسان الذي جاء ليوحد العالم ، ويجمع النوع الإنسانيَّ تحت رايةٍ واحدةٍ ، وعلىٰ عقيدةٍ واحدةٍ ، ويكوِّن مجتمعاً جديداً قائماً علىٰ الدِّين ، وعلىٰ الإيمان بربِّ العالمين ، ويبسط الأمن ، والسلام ، وينشر الحبَّ ، والوئام بين أعضاء الأسرة الإنسانيَّة ، ويجعلها جسداً واحداً ، إذا اشتكىٰ منه عضو ؛ تداعىٰ له سائر الجسد بالسَّهر ، والحُمَّىٰ ، من المعقول جداً من هـٰذا الإنسان أن يحارب هـٰذه

العصبيات بكلٍّ وضوحٍ ، وصراحةٍ ، ويجعلها كلمة باقيةً في عقبه لعلَّهم يرجعون .

ولٰكن العالم الإسلامي أصبح بعد ما غزته أوروبا سياسياً ، وثقافياً يخضع لهٰذه العصبيات الدمويَّة ، والجنسية ، والوطنية ، ويؤمن بها كقضيةٍ علميَّةٍ ، وحقيقةٍ مقرَّرةٍ واقعٍ لا مفرَّ منه ، وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعاً غريباً إلىٰ إحياء هٰذه العصبيات التي أماتها الإسلام ، والتغنِّي بها ، وإحياء شعائرها ، والافتخار في تسميته بالجاهلية وليس في معجمه تعبيرٌ أهول وأفظع منها ، ويمنُّ القرآن علىٰ المسلمين بالخروج منها ، وبحثُّهم علىٰ شكر هٰذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٩] .

والطبيعي من المؤمن ألاَّ يذكر الجاهلية مهما تقادم عهدها ، أو قارب إلا بمقتٍ ، وكراهيةٍ ، وامتعاضٍ ، واقشعرارٍ ، وهل يذكر السجين المعذَّب الذي أُطلق سراحه أيام اعتقاله ، وتعذيبه ، وامتهانه إلا وَعَرَتْهُ قشعريرةٌ ، وثارت

الذكريات الأليمة القاتمة ! وهل يذكر البارئ من علَّةٍ شديدةٍ طويلةٍ أشرف منها علىٰ الموت أيام سقمه إلا وانكشف باله ، وامتقع لونه ، وهل يذكر الإنسان رؤيا فظيعةً مفزعةً رآها إلا وشكر ٱلله علىٰ أنها حلمٌ زائلٌ ، وهمٌّ راحل ، والجاهلية ، والضلالة ، والبعد عن الحقائق ، وأنواع الخطر ، والمضارِّ في الدنيا والآخرة أعظمُ من كلِّ ذٰلك ، وجديرة بأن يثير ذكراها المقتَ الشديد ، ويحثَّ علىٰ الشكر للتخلص منها وانقضاء أيامها ؛ ولذٰلك جاء في الصحيح : « ثلاثٌ من كنَّ فيه ؛ وجد حلاوة الإيمان : أن يكون ٱلله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلىٰ الكفر كما يكره أن يقذف في النار » . البخاري ، كتاب الإيمان (١٦) .

وقد ذمَّ ٱلله شعائر الجاهلية ، وأبطالها ، وعظماءها في غير رفقٍ ، وتحفُّظٍ ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [فصلت : ٤١ ـ ٤٢] ، ويقول : ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٧ ـ ٩٩] .

ولٰكن كثيراً من الأقطار الإسلاميَّة ، والشعوب الإسلامية

بتأثير الفلسفات الغربيَّة ، والتفكير الغربيِّ وحده أصبحت تمجِّد عهدها العتيق الذي سبق الإسلام وحضارته ، وتقاليده ، وتحنُّ إليه ، وتحرص علىٰ إحياء شعائره ، وتخليد عظمائه ، وأبطاله ، وملوكه ، وأمجاده ، كأنَّه عهدها الذهبيُّ ، وكأنه نعمةٌ حرمهم الإسلام إيَّاها ، وفي ذٰلك من الجحود ، والنكران للجميل ، وقلَّة تقدير نعمة الإسلام ، وفضل محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وتهوين خطب الكفر ، والوثنية ، وما اشتملت عليه الجاهلية من خرافاتٍ ، وضلالاتٍ وسفاهاتٍ ، ومضحكاتٍ ، ومبكيات ما لا يُعقل عن مسلمٍ واعٍ ، وما يخاف ، معه الحرمان من نعمة الإسلام ، وسلب الإيمان ، والتعرُّض لسخط ٱلله الشديد ، وقد قال :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] .

زد إلىٰ ذٰلك ما يوجد في العالم الإسلاميِّ اليوم من التهوُّر في الحصول علىٰ المادة ، وإيثارها علىٰ كل مبدأ ، وعقيدة ، وإيثار الدنيا علىٰ الآخرة ، والإخلاد إلىٰ الأرض ، واتِّباع الهوىٰ ، وما تبع ذٰلك من التفسُّخ ، والاستهانة بمحارم ٱلله ، وشيوع الخمر ، والفسوق في الطبقات الراقية ، حتىٰ تكاد تكون هٰذه الطبقة نسخةً واحدةً ، وصورةً واحدةً ، في كلِّ بلدٍ إسلاميَّة إلا مَنْ عصم ربُّك ، وقليل ما هم ، والتحرُّر من قيود

الإسلام ، وفرائضه تحرُّراً تامَّاً ؛ حتىٰ كأنها لا صلة لها بالإسلام ، وشريعته ، وكأنَّها شريعةٌ منسوخةٌ ، وأسطورة خياليَّةٌ .

هٰذا تصوير العالم الإسلاميِّ الدينيِّ ، والاعتقاديِّ بالإجمال ، وهي موجةٌ جاهليةٌ تكتسح العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلىٰ أقصاه ، وهي أعظم موجةٍ واجهها العالم الإسلاميُّ في تاريخه الطويل ، وهي تفوق كلَّ موجةٍ معارضةٍ عرفها التاريخ الإسلاميُّ سواءٌ في قوَّتها ، وفي شمولها ، وفي تأثيرها في المجتمع الإسلاميِّ ، وتمتاز عنها بأن المنتبهين لهٰذه الأخيرة قلائل ، والذين ينقطعون إلىٰ محاربتها ، ويجندون لها قواهم ، ومواهبهم أقلُّ ، فقد حدث الإلحاد ، وظهرت الزندقة بتأثير الفلسفة اليونانية في العهد القديم ، فوُجد مَنْ يحاربها بعقله الكبير ، وذكائه النادر ، وعلمه الغزير ، ودراسته الواسعة ، وشخصيته القوية ، وظهرت الباطنيَّة ، والملاحدة ، فوُجد من يحاربها بالعلم ، والحكمة ، والبرهان ، وبقي الإسلام محتفظاً بنفوذه العقليِّ ومكانته العلميَّة ترتدُّ عنه كلُّ موجةٍ عاتيةٍ ، وينحسر عن طوده كلُّ فيضانٍ ، وكلُّ سيلٍ جارف .

ليست المسألة مسألة انحطاطٍ في الأخلاق ، وضعفٍ في العبادات ، وتركٍ للشعائر ، وتقليدٍ للأجانب ، وإن كانت

مسائل تستحق العناية ، والجهاد ، ولٰكن مسألة العالم الإسلاميِّ اليوم أعظمُ ، وأضخم من كلِّ ذٰلك ، إنَّها مسألة كفرٍ ، وإيمان ، وإنَّها مسألة بقاءٍ علىٰ الإسلام ، وخلع له ، إنَّ المعركة قائمةٌ بين الفلسفة الغربيَّة اللادينية ، وبين الإسلام آخر الرِّسالات ، وبين المادية ، والشرائع السَّماوية ، ولعلَّها آخر معركةٍ تقوم بين الدِّين واللادينية ، وإنَّها تحدِّد مصير العالم .

إن جهاد اليوم ، وإن خلافة النبوَّة ، وإنَّ أعظم القربات وأفضل العبادات أن تقاوم هٰذه الموجة اللادينية التي تجتاح العالم الإسلاميَّ ، وتغزو عقوله ومراكزه ، وأن تعاد الثقة المفقودة إلىٰ نفوس الشباب ، والطبقات المثقَّفة بمبادئ الإسلام ، وعقائده ، وحقائقه ، ونظمه ، وبالرسالة المحمَّدية ، وأن يُزال القلق الفكريُّ ، والاضطراب النفسيُّ اللذان يساوران الشباب المثقَّف ، وأن يقنعوا بالإسلام عقلياً ، وثقافياً ، وأن تحارَب المبادئ الجاهلية التي رسخت في النفوس ، وسيطرت علىٰ العقول علميَّاً ، وعقلياً ، وأن تَحُلَّ محلَّها المبادئ الإسلاميَّة باقتناعٍ ، وإيمانٍ ، وحماسةٍ .

لقد مضىٰ علينا قرنٌ كامل ، وأوروبا تغتصب شبابنا ، وعقولنا ، وتنبت في عقولنا الشكَّ ، والإلحاد ، والنفاق ، وعدم الثقة بالحقائق الإيمانيَّة والغيبيَّة ، والإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصاديَّة ، والسياسيَّة ، ونحن مُعْرِضون عن

مقاومتها ، ومعتمدون علىٰ ما عندنا من تراثٍ ، مضربون عن الإنتاج الجديد ، معرضون عن فلسفاتها ، ونظمها ، ومحاسبتها محاسبةً علميَّة ، ونقدها ، وتشريحها كتشريح الأطباء الجرَّاحين ، متعلِّلون بالبحوث السطحية المستعجلة ، وبالزيادة في ثروتنا العلميَّة القديمة ؛ حتىٰ فوجئنا في العصر الأخير بانهيار العالم الإسلاميِّ في الإيمان ، والعقيدة ، وملك زمام الأمور في البلاد الإسلاميَّة جيلٌ لا يؤمن بمبادئ الإسلام ، وعقيدته ، ولا يتحمَّس لها ، ولا تربطه بالشَّعب المسلم المؤمن البريء إلا « القوميَّة الإسلاميَّة » أو المصالح السياسيَّة .

وبدأت هٰذه العقلية ، أو النفسيَّة اللادينية تتسرب عن طريق الأدب ، والثقافة ، والصحافة ، والسياسة إلىٰ الجماهير ؛ حتىٰ أصبحت الشعوب الإسلامية ـ وفيها كلُّ خير ، وكلُّ صلاح ، وكل استعدادٍ وهي من أصلح الكتل البشريَّة في العالم ـ خاضعةً لهٰذه الطبقة بحكم ثقافتها ، وذكائها ، ونفوذها ، وإذا بقي هٰذا الوضع تسرَّب الإلحاد ، والفساد إلىٰ هٰذه الشعوب ، وإلىٰ الطبقات التي تعيش في البادية ، والقرىٰ ، وتعمل في المصانع ، والمزارع ، وسارت في طريق اللادينية ، والزندقة . هٰذا ما وقع في أوروبا ، وهو واقع في الشرق إذا جرت الأمور مجراها الطبيعيِّ ولم تَحُلْ

إرادة ٱلله القاهرة دون ذٰلك .

إنَّ العالم الإسلامي في حاجةٍ شديدة إلىٰ دعوةٍ إسلاميَّةٍ جديدةٍ ، وإنَّ هتاف الدعاة ، والعاملين فيه ، وهدفهم اليوم : « إلىٰ الإسلام من جديد » ولا يكفي الهتاف ، إنَّه لابدَّ من تصميمٍ حكيمٍ قبل العمل ، لابدَّ من تفكيرٍ هادىءٍ عميقٍ كيف نردُّ الطبقة المثقَّفة التي تحتكر الحياة ، وتملك الزِّمام إلىٰ الإسلام من جديد ، وكيف نبعث فيها الإيمان ، والثقة بالإسلام ، وكيف نحرِّرها من رق الفلسفات الغربيَّة ، والحضارة العصريَّة ونظرياتها اللاَّدينية ؟ ! !

إنَّه في حاجة إلىٰ رجالٍ ينقطعون إلىٰ هٰذه الدَّعوة ، ويكرِّسون عليها علمهم ، ومواهبهم ، وكفايتهم ، ولا يطمعون في منصبٍ ، أو جاهٍ ، أو وظيفةٍ ، أو حكومةٍ ولا يحملون لأحدٍ حقداً ، ينفعون ، ولا ينتفعون ، ويعطون ، ولا يأخذون ، ولا يزاحمون طبقة في شيءٍ تحرص عليه ، وتتهالك ، حتَّىٰ لا تكون لها حجَّةٌ عليهم ، ولا للشيطان سبيلٌ إليهم ، شعارهم الإخلاص ، والتجرُّد عن الشَّهوات ، والأنانيات ، والعصبيَّات .

إنَّ العالم الإسلاميَّ في حاجة إلىٰ منظَّمات علميَّةٍ تهدف إلىٰ إنتاج الأدب الإسلاميِّ القويِّ الجديد الذي يعيد الشباب المثقَّف إلىٰ الإسلام بمعناه الواسع من جديد ، ويحرِّرهم من

رقِّ الفلسفات الغربيَّة التي آمن بها كثيرٌ منهم بوعيٍ ، ودراسةٍ ، وأكثرهم بتقليد ، وتسليم ، ويقيم في عقولهم أُسس الإسلام من جديد ، ويغذِّي عقولهم ، وقلوبهم . إنَّه في حاجةٍ إلىٰ رجالٍ في كلِّ ناحية من نواحي عالم الإسلام عاكفين علىٰ هـٰذا الجهاد .

إنَّني لم أكن في فترة من فترات حياتي ممَّن يقول بفصل الدين عن السياسة وممَّن يفسِّر الدين تفسيراً لا يتصادم مع وضع ـ مهما انحرف ، وشذَّ عن الإسلام ـ وينسجم مع كلِّ مجتمعٍ ، ولا ممَّن يعتبر السياسة « الشجرة الملعونة في القرآن » بل أنافي مقدِّمة من يدعو إلىٰ إيجاد الوعي السياسي الصَّحيح في الشعوب الإسلاميَّة ، وإيجاد القيادة الصالحة ، وممَّن يعتقد : أنَّ المجتمع الدِّينيَّ لا يقوم إلا بالمَلِكِ الدِّيني الصَّحيح ، والحكم الصَّالح المؤسَّس علىٰ أسس الإسلام ، ولا أزال أدعو إلىٰ ذٰلك ؛ حتىٰ ألقىٰ ٱلله ، إنَّما المسألة مسألة ترتيبٍ ، وتقديمٍ ، وتأخيرٍ ، وما تقتضيه حكمة الدِّين ، وفقهه ، وما تفرضه الأوضاع .

إنَّنا بذلنا جهودنا ، ومواهبنا وما أوتينا من فرصٍ ، ووسائل في حركاتٍ سياسيةٍ ، وتنظيميَّةٍ ، وكان كل ذٰلك علىٰ أساس أنَّ الشعب مؤمنٌ ، وأنَّ من يقوده ويملك زمامه ـ وهي الطبقة المثقفة لا محالة ـ مؤمنٌ مقتنعٌ بالإسلام ، وعقيدته ،

ومبادئه ، متحمِّسٌ للإسلام ، وعلوِّه ونفاذ حدوده ، وإذا الأمر بالضدِّ ، وإذا الشعب قد ضعُف في إيمانه ، وانحطَّ في أخلاقه من حيث لم نشعر ، ولم يشعر ، وإذا الطبقة المثقَّفة ذابت في أكثر أفرادها العقيدةُ الإسلاميَّة ، وتبخرت بتأثير فلسفات الغرب وسياسته ونفوذه ، وكثير من أفرادها ثائرٌ علىٰ العقيدة الإسلامية مؤمن بالفلسفات الغربيَّة ، وما جاءت به من عقائد وأفكار تصادم الدين ، وينتصر لها ، ويتحمَّس لها ، ويحرص علىٰ نشرها ، وتنفيذها ، ويريد أن ينظِّم الحياة علىٰ أساسها ، وفي ضوئها ، ويصل بالشعب إليها ، فمنهم مسرعٌ متهوِّرٌ ، ومنهم حكيمٌ متدرِّج ، ومنهم منفذٌ بالقوَّة ، يفرضها علىٰ الشعب فرضاً ، ومنهم هادىءٌ يزيِّنها للشعب ، والهدف واحدٌ ، والغاية واحدةٌ .

ورجال الدين ـ إنْ صحَّ هـٰذا التعبير ؛ إذ ليس في الإسلام الكهنوت ، والطبقة الدينية الممتازة ـ في ذٰلك فريقان : فريقٌ يحارب هـٰذه الطبقة حرباً شعواء ، ويكفِّرها ، ويبتعد عنها ، ويعرض عن تتبُّع أسباب هـٰذا الاتجاه اللاديني ، وعن ثقافتها ، ولا يُعْنَىٰ بإصلاح الأحوال ، وتغيير هـٰذا الاتجاه المعارض ، والمحارب للإسلام بالاختلاط بها ، وإزالة الوحشة ، والنُّفور عن الدِّين ، وعن رجال الدين ، وتشجيع ما عندها من خيرٍ ، وذرة إيمان ، وتغذيتها بالأدب الإسلاميِّ الصالح المؤثر ،

وبالزُّهد فيما عندها من حياةٍ ، أو مالٍ ، أو قوَّةٍ ، وسلطان ، وتقديم النصح الخالص ، والتوجيه الحكيم .

وفريق يتعاون معها ، ويساهمها في المنافع ، والخيرات ، وينتفع بها في دنياه من غير أن ينفعها في دينها ، فلا دعوة ، ولا عقيدة ، ولا غيرة علىٰ الدِّين ، ولا حرص علىٰ الإصلاح ، ولا رسالة لها في هـٰذا القرب ، والتعاون .

والفريق الثالث ـ الذي يتألَّم بهـٰذا الوضع ، ويتوجَّع له ، ويعترف بأنَّ هـٰذه الطبقة مريضةٌ صالحةٌ للتداوي مستعدَّةٌ للشفاء ، ويتقدَّم إليها بالدَّعوة الرفيقة ، والرسالة الحكيمة ، والنَّصيحة الخالصة ـ يكاد يكون مفقوداً ، فلا صلة لهـٰذه الطبقة بالدِّين ، وبالجوِّ الديني ، تعيش في عزلةٍ عنه ، وفي وحشةٍ منه ، ولا تزداد إلا بعداً عن الدِّين ، وازدراءً بكلِّ ما يتصل به ، ويزيدها الفريق الذي يحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها ، والفريق الذي يتزعَّم الدين ، ويريد أن ينزع منها الحكم ، وينافسها في الجاه ، والمنصب ، لا يزيدها الفريقان إلا بغضاً للدِّين ، وإشفاقاً منه ، والإنسان مفطورٌ علىٰ بغض من ينافسه في دنياه ، إذا كان لا يؤمن إلا بالدُّنيا ، وينتزع منه الحكم ، والسلطان إذا كان لا يعيش إلا علىٰ الحكم ، والسلطان ، ويساهمه في مادته ، وشهواته إذا كان لا يعرف إلا المادَّة والشهوات .

والأقطار الإسلاميَّة اليوم بحاجةٍ إلىٰ فريقٍ يتجرَّد عن المطامع ، ويخلص للدَّعوة ، ويبتعد عن كلِّ ما يوهم بأنَّ همَّه الدنيا ، والمادَّة ، والتغلب علىٰ الحكومة لنفسه ، أو عشيرته ، أو حزبه ، يحلُّ العقد النفسيَّة ، والعقليَّة التي أحدثتها الثقافة الغربيَّة ، أو أخطاء « رجال الدين » أو سوء التفاهم ، أو قلَّة الدراسة ، والابتعاد عن الإسلام وجوِّه ، وذٰلك بالمقابلات ، والصداقات ، والمحادثات ، والمراسلات ، والرِّحلات ، وبالأدب الإسلاميِّ الصالح المؤثر ، وبالروابط الشخصيَّة ، وبالنَّزاهة ، وعلوِّ الأخلاق ، وقوَّة الشخصية ، والزهد في حطام الدنيا ، والعزوف عن الشَّهوات ، وتمثيل أخلاق الأنبياء ، وخلفائهم .

هٰذا هو الفريق الذي خدم الإسلام في كلِّ عصر ، وإليه يرجع الفضل في تغيير اتجاه دولة بني أميَّة ، وظهور خامس الخلفاء الراشدين « عمر بن عبد العزيز » ونجاحه ، وقد أعيد هٰذا التاريخ في عصر الملك المغولي الأكبر جلال الدين أكبر الذي ثار علىٰ الإسلام وصمَّم علىٰ تحويل هٰذه القارة الإسلاميَّة الواسعة (الهند) التي عاشت في الحكم الإسلامي أربعة قرون ، جاهليَّةً برهميَّةً ، ولٰكن بفضل هٰذه الدعوة الحكيمة ، وبظهور داعيةٍ إسلاميٍّ مجدِّد ، وشخصية إسلاميَّة

حكيمة [1] أخلصت للإسلام ، وأحسنت فقهه ، وفقه الدعوة ، وبتأثير تلاميذه عادت الهند إلىٰ الإسلام أقوىٰ ، وأفضل ، وتوالىٰ علىٰ عرش « أكبر » ملوكٌ يتدرجون في الصَّلاح ، وحبِّ الإسلام ؛ حتىٰ جاء علىٰ العرش ملكٌ يتجمَّل تاريخُ الإسلام ، وتاريخُ الإصلاح بذكره ، وحديثه » [2] .

إنها فريضة لا تحتمل التأخير ، ولا تأخير يومٍ واحد ، فالعالم الإسلاميُّ يواجه اليوم موجة ردَّةٍ عنيفة منتشرة في أعزِّ أبنائه ، وأقوىٰ أجزائه ، إنَّها ثورة علىٰ أعزِّ ما يملك من عقيدةٍ ، وخلقٍ ، وقِيَمٍ ، ولا بقاء للعالم الإسلاميِّ بعد ضياع هٰذه الثروة التي خلَّفها الرسول ، وتوارثتها الأجيال ، وجاهد في سبيلها أبطال الإسلام .

فليكن الموضوع موضع دراسةٍ واهتمامٍ لجميع مَنْ يهمُّهم أمرُ الإسلام .

✍ ✍ ✍

---

(١) هو العالم الرباني المجدِّد الكبير الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، المتوفىٰ عام ١٠٣٤ هـ .

(٢) هو الملك الفاضل الصالح القويُّ الأمين « محيي الدين أورنك زيب » المشهور « بعالمكير » الذي تنسب إليه « الفتاوىٰ الهندية » المتوفىٰ عام ١١١٨ هـ .

فهـــرس الموضـــوعات